المجلد التاسع والعشرون للعام ٢٠٢٥م
حولية كلية اللغة العربية بجرجا

النظرية التوليدية التحويلية والدراسات العربية القديمة

Transformational obstetric theory and ancient Arab studies

بقلم الدكتور

ممدوح إبراهيم محمود محمد

أستاذ فقه اللغة في كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - المملكة العربية السعودية

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الأول من إصدار سبتمبر ٢٠٢٥م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٥/٦٩٤٠م

النظرية التوليدية التحويلية والدراسات العربية القديمة

ممدوح إبراهيم محمود محمد

قسم اللغة العربية في كلية اللغة العربية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني : d.mamdoh2013@gmail.com

الملخص

تعد هذه النظرية في توجهها العام الذي يعنى بوصف وتفسير القدرة اللسانية الكامنة في الذهن، والمتحكمة في العملية الكلامية من أهم النظريات اللسانية الحديثة التي وجهت إلى دراسة اللسان في بنيته التكوينية الذهنية المجردة. فهي من أهم النظريات اللغوية في القرن العشرين، وهي عبارة عن نظام دقيق يصفُ الأحكام والأركان التي تكوّن أي جملة يمكن تكوينها في أي لغة في العالم. ومن هنا فإن هذا البحث ويهدف إلى البحث عن مدى وجود جذور أو أصول لهذه النظرية في التراث العربي على اختلاف علومه وتنعها، وعن أثر هذا التراث في الدراسات اللغوية الحديثة وفي مقدمتها النظرية التوليدية التحويلية، كما يهدف إلى إبراز الجهود الكبيرة التي حظي بها تراثنا العربي من دراسات الغرب بكامل أطيافه وجنسياته ومعتقداته وتوجهاته، والنظر في مدى التأثر والتأثير الحاصل بين الثقافات المتعددة مع الثقافة العربية. وقد توصل البحث إلى عدة نتائج أهمها: أن هذه النظرية لها جذور فلسفية عربية قديمة وغربية حديثة تمثلت فيما ذكره همبولت وديكارت وكانط والغزالي وغيرهم. ومنها: أن هناك تشابهًا أو التقاءً واضحًا كل الوضوح بين النظرية النحوية عند "سيبويه" ومن بعده من علماء النحو، وعند "الجرجاني وابن جني وأبو هلال العسكري وغيرهم"، وبين النظرية التوليدية لـ "أفرام نعوم تشومسكي" الذي درس علم اللغة والرياضيات والفلسفة، وعمل عضوًا في عدة جمعيات علمية ولغوية، ومنها: معرفة تشومسكي باللغة العبرية معرفة تامة مما لعب دورا مهما في تأثره بالنحو العربي؛ فقد كانت هي الواسطة بين العربية واللغات الأوربية وخاصة الإنكليزية لتأثر تشومسكي بها، ومن هنا يبدو أيضا دورها في نقل التراث النحوي العربي إلى علم اللغة المعاصر ولا سيما اللغة الإنجليزية، والسبب في ذلك: أن أغلب أئمة علم اللغة في الغرب هم يهود كـ: جاكبسون، وهال، وتشومسكي وغيرهم.

وقد جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع. أما المبحثان فهما: المبحث الأول: نشأة النظرية التوليديّة التحويليّة في الدراسات الغربية الحديثة. والمبحث الثاني: النظرية التوليدية التحويلية في الدراسات العربية القديمة.

الكلمات المفتاحية: النظرية التوليدية، النظرية التحويلية، الدراسات العربية القديمة.

Transformational obstetric theory and ancient Arab studies

Mamdouh Ibrahim Mahmoud Mohammed
Department of Arabic Language at the College of Arabic Language - Imam Muhammad bin Saud Islamic University - Saudi Arabia.
Email: d.mamdoh2013@gmail.com

Abstract

This theory is in its general orientation, which is concerned with describing and explaining the linguistic ability inherent in the mind, and the trial in the verbal process is one of the most important modern linguistic theories that directed the study of the tongue in its abstract mental structure. It is one of the most important linguistic theories in the twentieth century, and it is an accurate system that describes the rulings and pillars that form any sentence that can be formed in any language in the world. Hence, this research aims to search for the existence of roots or origins of this theory in the Arab heritage of different sciences and its prestige, and the impact of this heritage on modern linguistic studies, foremost of which is the transformative theory, as it aims to highlight the great efforts that our Arab heritage received from the studies of the West with its full spectra, nationalities, beliefs and orientations, and looking at the extent of influence and influence between multiple cultures with culture with culture Arabic. The research has reached several results, the most important of which is that this theory has an ancient Arab and Western philosophical roots that were represented in what Humulat, Dikart, Kant, Al - Ghazali and others mentioned. Including: that there is a clear similarity or meeting with all the clarity between the grammatical theory of 'Sibawayh' and after him from grammar scholars, and at 'Al -Jarjani, Ibn Jenni, Abu Hilal Al -Askari and others', and the obstetric theory of 'Afram Naoum Chomsky' who studied linguistics, mathematics and philosophy, and worked as a member of several scientific and linguistic societies, including: Chomsky's knowledge of the Hebrew language He played an important role in his influence on Arab grammar; It was the mediator between Arabic and European languages, especially English, because Chomsky was influenced by it, and from here it also seems its role in transferring the grammatical grammar to contemporary linguistics, especially the English language, and the reason for this: that most of the imams of linguistics in the West are Jews as: Jacbuson, Hal, Chomsky and others .

This research came in the introduction, preamble, research, conclusion, and index of sources and references. As for the two topics, they are: the first topic: the genesis of transformational theory in modern Western studies. The second topic: transformational obstetric theory in old Arab studies.

Keywords: obstetric theory, transformational theory, ancient Arabic studies.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الهادي إلى سواء السبيل، علم الإنسان ورزقه حسن البيان ودعاه إلى التدبر والتفكير فيما يحيط به من كنوز وعلوم وما يحيط به من بدائع صنع الله في الكون، والصلاة والسلام على من بعثه الله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا سيد الأولين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين. **أما بعد:**

فقد شغلت اللسانيات الحديثة ونظرياتها التي انبثقت عنها الفكر اللغوي في عالمنا العربي المعاصر فتبناها البعض تمامًا أحيانًا وعدها من مفاخر الدراسات اللغوية الحديثة التي ظهرت عند الغرب وحاول تطبيقها تطبيقًا كاملا على دراساتنا العربية والشرعية من دون التأمل فيما تحمله في طياتها من مخاطر أو تحليلات خاطئة على لغتنا، على حين نظر إليها آخرون نظرة تأمل وتدبر فيما جاءت به وفيما اعتمدت عليه وفي مصادرها التي أخذت منها فقبل بعضها ورفض بعضها الآخر، وكانت المدرسة التوليدية التحويلية من بين هذه المدارس التي حازت على انتشار واسع بين المدارس اللغوية فقبلها اللغويون العرب ونادوا بتطبيقها على دراساتنا اللغوية من دون تأمل وتدبر – عند البعض – في تراثنا الذي كان أحد مصادرها على النحو الذي سيأتي توضيحه، وتصدرت في كتاباتهم مكانة عالية بين المدارس الحديثة؛ كونها تهتم بالجانب التحليلي والتفسيري بدلًا من الجانب الوصفي الذي شاع في الدراسات اللغوية، في محاولة جدية لتقديم صورة واضحة شمولية عن بنية اللغة وميزاتها الإنسانية، وعلاقتها بالعقل والفكر الإنساني. وتعد هذه النظرية – بحق – نقطة تحول في مسار الدراسات اللغوية؛ لأنها رسمت لنفسها طريقًا خالفت فيه ما سبقها من نظريات كالبنيوية منهجًا، وهدفًا، وأدواتٍ. وهذا لا يعني مطلقًا أنها أهملت أفكار من سبقها، بل تناولتها بالدرس والنقد. فرفضت منها ما يتعارض مع وجهة نظرها، وأخذت منها ما يمكن صقله والاستفادة منه في تحليلاتها وتفسيراتها الخاصة. فإذا كانت النظريات

السابقة تعتمد على المنهج الوصفي في دراستها للغة، فإن النظرية التوليدية التحويلية تعتمد على الوصف والتفسير معًا؛ لأن غايتها لا تقف عند وصف ظاهر البنى اللغوية وحسب، بل تتعداها لمحاولة فهم الطبيعة البشرية وتحليلها. فهي نظرية تبحث في علاقة اللغة بالفكر، كما تعد هذه النظرية من أهم النظريات اللسانية الحديثة التي وجهت إلى دراسة اللسان في بنيته التكوينية الذهنية المجردة. فهي من أهم النظريات اللغوية في القرن العشرين، وهي عبارة عن نظام دقيق يصفُ الأحكام والأركان التي تكوّن أي جملة يمكن تكوينها في أي لغة في العالم.

وقد سبقني إلى هذه الفكرة بعض الدراسات التي تتفق في ظاهرها مع هذا البحث في الفكرة الرئيسة وتختلف عنها في المضمون وفي الطرح والتداول المبني في أساسه على كتب التراث على اختلاف علومه وتنوعها، ومنها: (نظرية تشومسكي وتمثلاتها في التراث النحوي العربي) لـ وهيبة بن حدو، وقد جاء البحث في سبع عشرة صفحة ونشر في مجلة رفوف –مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر– مجلد(١٠)، العدد (١) جانفي ٢٠٢٢م وفيه أشار الباحث في إيجاز إلى القضايا التي تماثل فيها الفكر العربي مع الفكر التشومسكي معتمدًا فيها على ما ذكره المحدثون عنها بعيدًا عن التراث ومدى وجودها فيه أو عدمه، وبحث (تراث العربية ونظرية نوام تشومسكي التوليدية التحويلية – بحث في المنهج والتطبيق) لـ خضر روبحي وقد جاء هذا البحث في أربع عشرة صفحة ولم يستعرض فيه النظرية في التراث العربي وإنما اكتفى بعرض ملامح هذه النظرية بصفة عامة عند كل من تشومسكي والعرب في أربع صفحات، وبحث (ملامح النظرية التحويلية التوليدية بين العرب والغرب) لـ عادل حماد البلوي، و حنان فرج القاسمي وقد جاء في سبع وثلاثين صفحة جاء أغلبها في الحديث عن النظرية واستعرض فيه الباحث ملامح النظرية التحويلية التوليدية بين العرب والغرب وكانت عمدته في هذا البحث ذي الدراسة المقتضبة ما جاء عن سيبويه والمبرد ولم يتعرض لغيرهما في التراث العربي، واعتمد فيه على إشارات المحدثين من دون

البحث والتنقيب عنها في التراث العربي. إضافة إلى بعض الإشارات إليها فيما كتبه عبده الراجحي، وتمام حسان، وخليل عمايرة.

أما أهمية هذا البحث فتكمن في البحث والتنقيب عن أثر التراث العربي في الدراسات اللغوية الحديثة وفي مقدمتها النظرية التوليدية التحويلية، وفي البحث عن جذور هذه النظرية وأصولها الفكرية في تراثنا العربي على اختلاف فنونه وتنوعها، ولم يقتصر البحث على النحو العربي القديم وإن كان هو أحد دعائمها وركائزها ومنطلقاتها كما جاء في الحديث المرتجل عنها في الدراسات السابقة، كما يهدف إلى إبراز الجهود الكبيرة التي حظي بها تراثنا العربي من دراسات الغرب بكامل أطيافه وجنسياته ومعتقداته وتوجهاته، والنظر في مدى التأثر والتأثير الحاصل بين الثقافات المتعددة مع الثقافة العربية، كما يهدف إلى البحث عن أثر التراث العربي في هذه النظرية تحديدا في القارئ غير العربي، وأن يفحص الكيفيّات المختلفة التي تناولت بها الدراسات الأجنبية إنتاج العرب وضروب تعاملها معه جمعًا وتحقيقًا ودراسة ونقدًا وترجمةً واستلهامًا.

وقد جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع. أما المبحثان فهما: المبحث الأول: نشأة النظرية التوليديّة التحويليّة في الدراسات الغربية الحديثة. والمبحث الثاني: النظرية التوليدية التحويلية في الدراسات العربية القديمة.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل، فإن أكن وفقت فيما كتبت وفيما هدفت إليه فبتوفيق من الله – ﷻ – وإن كان فيه نقص فالله هو الكامل والنقص في الناس شامل.

﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود:٨٨]

التمهيد

التعريف بالنظرية وأهميتها

تعد النظرية التوليدية من أشهر نظريات اللغة في الوقت الحاضر؛ لما تميزت به من بساطة في التحليل، وحداثة في الأفكار، ويعد (تشومسكي) رائد هذه النظرية. فقد استطاعت نظريته أن تقدم تفسيرات علمية لظواهر لغوية تخص الدلالة، إذ انطلق من الجانب العقلاني إلى القول إن الإنسان بما يملك (فطريا) من كفاية لغوية أو نظام لغوي عام مجرد قادر على توليد عدد كبير من الجمل التي لم يستمدها من خبرته، ففكرة توليد الجمل غير قائمة عنده على عملية استدعائية يتم بموجبها استدعاء جمل من الذاكرة، بل يتم إنتاجها استنادا إلى القدرة أو الكفاية اللغوية، أو النظام اللغوي العام المجرد. (١) وقد انطلق (تشومسكي) للتدليل على وجود هذه الكفاية من تعلم اللغة عند الطفل؛ لأنه وجد أن الطفل ينتج جملا لم يسبق له أنه سمعها من قبل بناء على القواعد الكامنة في ضمن كفايته اللغوية، وهذه النظرية تتخذ شكل قاعدة إعادة كتابة، أي إنها تعيد كتابة رمز يشير إلى عنصر معين من عناصر الكلام برمز آخر أو بعدة رموز. (٢) فلقد اتخذ (تشومسكي) في نظريته هذه منهجًا عميقًا لا يعتمد الوصف – كما هو الحال عند أتباع المنهج البنيوي – وإنما التحليل والتفسير للوصول إلى وضع المعايير التي تحدد قدرة اللغة على الخلق والإبداع والابتكار بإعادة بناء شتى المعاني عن طريق قواعد التوليد والتحويل، ولذلك عدت النظرية التحويلية التوليدية من أحدث النظريات التي قدمت تفسيرًا علميًّا موضوعيًّا لنظام اللغة ووضعت قواعد مرنة تصلح لأي لغة؛ لأنها قواعد تتسم بالشمولية والعالمية. (٣)

وتعتمد هذه المدرسة في دراسة اللغة على عنصرين رئيسين هما التوليد والتحويل، ويأتي على رأس علمائها هاريس (Harris) وتلميذه تشومسكي

---

(١) علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية – د/ فريد عوض حيدر صـ ١٧٤.

(٢) علم اللغة المعاصر المقدمات والتعليقات – د/ يحيى عبابنة، ود/ آمنة الزعبي صـ ٩٨.

(٣) الألسنية علم اللغة الحديث المبادئ والأعلام – د/ ميشال زكريا صـ ٢٠٣.

(Chomsky) وقد كان لهما أكبر الأثر في نشوء علم اللغة التوليدي التحويلي. أما التوليدي فهو علم يرى أن في وسع أية لغة أن تنتج ذلك العدد اللانهائي من الجمل التي ترد بالفعل في اللغة. وأما (التحويلي) فهو العلم الذي يدرس العلاقات القائمة بين عناصر الجملة وكذلك العلاقات بين الجمل الممكنة في لغة ما. ويعد (هاريس) الأب الحقيقي لعلم اللغة التحويلي، و(تشومسكي) يعد الأب الحقيقي لعلم اللغة التوليدي، فهو قد أدخل كثيرا من التعديلات على علم اللغة التحويلي عند هاريس... وعرف التحويل بأنه عملية نحوية تغير ترتيب المكونات في داخل جملة ما، وبوسعها حذف عناصر أو إضافتها أو استبدالها. (١) فالمكون التوليدي الأساس أو النحو التوليدي (Generative Grammar): هو طائفة من القواعد التي تطبق على معجم محدود من الوحدات فتولد مجموعة محدودة أو غير محدودة من الائتلافات... وتكسبه القدرة على إنتاج وتوليد عدد لا محدود أو لا متناهي من الجمل، انطلاقا من عدد محصور أو متناه من قواعد اللغة وأنظمتها، وهو حصيلة جميع القواعد الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية. (٢) فالتوليد – عنده – معناه إنتاج عدد لا متناه من الجمل، أي توليد وإنتاج عدد لا متناه من الأفكار. ويتم ذلك بواسطة مثيرات لغوية أو غير لغوية. بمعنى أن المتكلم ينتج هذه الجمل التي تحتوي أفكارًا متعددة عندما يكون في حالة تخاطب مع الآخرين أو عند تأثره بعامل خارجي يثير حافزته اللغوية، كأن يرى موقفًا غريبًا فيعلق عليه دون شعور. أما المكون التحويلي أو النحو التحويلي (Transformation Grammar): فهو التغييرات أو القواعد التي يدخلها المتكلم والمستمع على تركيب؛ فينقل أو يحول البنيات العميقة المولدة من أصل المعنى إلى بنيات ظاهرة على سطح الكلام، فالقواعد التحويلية وهي إما اختيارية أو إلزامية تولد عددًا كبيرًا من الجمل انطلاقًا من البنية العميقة بصورة بنيات سطحية

(١) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي – د/ رمضان عبد التواب صـ ١٨٨.

(٢) اللسانية التوليدية والتحويلية – د/ عادل فاخوري صـ ٩: ١٠.

متعددة.[١] وهذه القواعد التحويلية قادرة على وصف اللغة وتفسير معطياتها كما يقول تشومسكي. وتعتمد في المقام الأول على تطبيق قواعد تركيب أركان الجملة، ثم تجري عليها تحويلات إجبارية أو اختيارية.

فالنحو التحويلي يعتمد مقدمًا على وجود قواعد توليدية؛ لأنه تطوير وامتداد لها، فبإدخال عناصره على النحو التوليدي يصبح تحويليًا. "وهذا لا يعني أن كل قواعد توليدية هي بالضرورة تحويلية، إذ قد تكون القواعد توليدية ولكن ما هي بتحويلية، وفي هذه الحالة تكون القواعد عبارة عن مجموعة طويلة من القوانين التفرعية التي تحتوي على العديد من الرموز التفصيلية المفصلة. ومثل هذه القواعد التوليدية اللاتحويلية هي بالتأكيد معقدة تنقصها البساطة؛ لأنها لا تستفيد من البساطة النجمة عن افتراض تركيب باطني وآخر ظاهري لكل جملة. "ومن الناحية الأخرى كل قواعد تحويلية هي توليدية، إذ لا توجد قواعد تحويلية إلا وهي توليدية في الوقت نفسه؛ لأن جميع فرضيات القواعد التحويلية وخاصة فرضيات تشومسكي ومن سار على نهجه تصف اللغة بطريقة واضحة ومتسلسة". [٢] وتتم عمليات التحويل بقلب البنيات العميقة إلى بنيات ظاهرة دون أن تمسّ بالتَّحويل؛ أي: بالتأويل الدلالي الذي يجري في مستوى البنيات العميقة. أمَّا التحويلات التي كانت وراء وجود بعض المقومات فإنَّها تتم في مرحلتين: إحداهما: بالتحويل البنيوي للسلسلة التركيبية لكي نعرف هل هي منسجمة مع تحويل معين. والثانية: باستبدال بنية هذا التركيب بالزيادة أو بالحذف أو بتغيير الموضوع أو بالإبدال، فنصل حينئذ إلى سلسلةٍ مُتتالية من التحويلات تتطابق مع البنية الخارجية. ويقصد بالتحويل في النحو التوليدي: التَّغيُّرات التي يُدخلها المُتكلِّم على النَّصِّ؛ فينقل البنيات العميقة المُولَّدة من أصل المعنى إلى بنيات ظاهرة على سطح الكلام، وتخضع بدورها إلى الصياغة الحرفية النَّاشئة عن التَّقطيع الصَّوتي. [٣]

---

(١) نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية – د/ مازن الوعر صـ ٥٥.

(٢) قواعد تحويلية للغة العربية – د/ محمد علي الخولي صـ ٩.

(٣) المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة– د/ محمدالصغير بناني صد ٨١.

فهذه النظرية تميّز بين الجملة الأساسية التي أطلق عليها النواة، والجملة المشتقة التي أطلق عليها الجملة المحوّلة، وتوصف الجملة النواة بأنها بسيطة وتامة، وصريحة، وإيجابية، ومبنية للمعلوم، على حين توصف الجملة المحوّلة بأنها تنقصها خاصة من خواص الجملة النواة، وتكون إما استفهاما، أو أمرا، أو نفيا، أو معطوفة أو متبعة أو مدمجة، هكذا ميز بينهما تشومسكي في كتابه الموسوم بـ (البنى التركيبية ١٩٥٧م) وفيه ذكر أن التّحويل يكشف لنا بطريقة جليّة كيف تتحوّل الجملة النواة إلى عدد من الجمل المحوّلة، وأتى جملة من القواعد التحويلية التي قد تكون وجوبية أو جوازية منها: الاستفهام، والنّفي، والأمر، والمجهول، والعطف، والدمج، والإتباع، والزمن، والملحقات، والحدود الفاصلة. وعلى هذا يعنى بالنظرية التوليدية التحويلية: "تحويل جملة إلى أخرى أو تركيب إلى آخر، والجملة المحولة عنها هي ما يعرف بالجملة الأصل – البنية العميقة – والقواعد التي تتحكم في تحويل الأصل هي "القواعد التحويلية"، وهي قواعد تحذف بعض عناصر البنية العميقة أو تنقلها من موقع إلى موقع آخر، أو تحولها إلى عناصر مختلفة، أو تضيف إليها عناصر جديدة وإحدى وظائفها الأساسية تحويل البنية العميقة الافتراضية التي تحتوي على معنى الجملة الأساس إلى البنية السطحية الملموسة التي تجسد بناء الجملة وصيغتها النهائية". (١) فالنظرية التحويلية ترتكز على مفهوم رئيس هو أن لكل جملة في اللغة تركيبًا باطنيًا وتركيبًا ظاهريًا، وأن هناك قوانين تنظم العلاقات بين التراكيب الباطنية والتراكيب الظاهرية للغة وتسمى هذه القوانين قوانين تحويلية. ومما ينبغي الإشارة إليه أن "التحويل ومقوماته لا يمسُّ المعنى الأصلي للجمل، ولكن صورة المؤشرات التي هي وحدها قابلة للتغيير، "ونقصد بالمؤشرات (les marqueurs) العُقد التي تضفر فيها خيوط الكلام، فالتَّحويلات عمليات شكليَّة محضة، تهمُّ تراكيب الجمل المُولَّدة من أصل المعنى، وتتم بشغور الموقع أو بتبادل المواقع أو بإعادة صوغ الكلمات أو باستخلافها، حيث يستخلف الطرف المقوم بطرف آخر مكانة أو بإضافة مُقوِّمٍ جديدٍ له". (٢)

(١) ينظر: من الأنماط التحويلية في النحو العربي – د/ محمد حماسة عبد اللطيف صـ ١٣.

(٢) المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة– محمدالصغير بناني صـ٨٠، ٨١

أهمية النظرية التوليدية التحويلية:

أكد العلماء والباحثون على أهمية الاتجاه التحويلي في الدرس اللغوي بعامة، والنحوي بخاصة، فيقول جون ليونز: "إن النحو التحويلي هو أفضل نظرية ظهرت حتى الآن لوصف تركيب اللغة الإنسانية وتفسيرها بطريقة منهجية". (١) ويقول محمد علي الخولي: "من أبرز أهداف أي تحليل لغوي شامل أن يميز بين جمل اللغة – موضوع التحليل – الصحيحة نحويًّا والجمل غير الصحيحة نحويًّا، ثم يكشف عن حقيقة تركيب الجمل الصحيحة". (٢) وهو ما حققته هذه النظرية. كما تستطيع القواعد التحويلية أن تفسر كيف يقدر المرء أن يحكم أن جملتين أو أكثر مترادفتان في معناهما، رغم أن تراكيبهما الظاهرة متباينة، وبالطبع فالتفسير الذي تقدمه النظرية التحويلية هو أنه قد تكون التراكيب الظاهرية لعدة جمل مختلفة، ولكنها جميعًا ذات تركيب باطني واحد، وهذا الاشتراك في التركيب الباطن هو السبب في تطابقها في المعنى، كما تستطيع هذه لقواعد تفسير كيف يستطيع المرء أن يحكم أن جملتين متشابهتين في التركيب الظاهري غير متوازنتين في العلاقة المعنوية. (٣) كما تقدم هذه القواعد التحويلية تفسيرًا مقنعًا لقدرة المرء على إنتاج عدد لا نهائي من الجمل الجديدة مع فهمه لها، وتتميز هذه القواعد بقدرتها على تحليل أنماط الجمل البسيطة والمعقدة، كما أن صاحب هذا الاتجاه "يعد الوحيد من بين اللغويين الذي استطاع أو حاول أن يربط بين اللغة والطبيعة البشرية، بشكل جعل آراءه عن الطبيعة البشرية تغذي آراءه في اللغة، وَآراؤه في اللغة بدورها تغذى آراءه في النفس البشرية. (٤) والأهم من ذلك أن المنهج التحويلي يعد طريقة جديدة للنظر إلى بعض الأفكار التقليدية للغة ودراستها بمنظور جديد. كما أنه يستخدم منهجًا ثابتًا في الوصف والتحليل. كما أن هذه النظرية تهدف إلى إبراز

---

(١) نظرية تشومسكي اللغوية – جون ليونز – ترجمة د/ حلمي خليل صـ ٣٢.

(٢) قواعد تحويلية للغة العربية – د/ محمد علي الخولي صـ ٢٦.

(٣) ينظر: قواعد تحويلية للغة العربية – د/ محمد علي الخولي صـ ٢٦.

(٤) محاضرات في علم اللغة الحديث – د/ أحمد مختار عمر صـ ١٦٤.

حقيقة التوليد اللغوي، وهذه الفكرة لم تكن مطروحة في المناهج البنيوية والدراسات التقليدية، وبذلك استطاعت النظرية التوليدية التحويلية أن تعرج بالبحث اللساني من منهج يتوخّى معطيات علم النفس السلوكي إلى منهج عقلي همّه إزاحة النقاب عن القدرة الكامنة وراء الفعل اللساني، والسعي من أجل تعليله وتفسيره بدلا من وصفه وصفا شكليا. (١) أي أنّ اللسانيات التوليدية التحويلية تؤكّد وتفرض نقل مركز الاهتمام من اللغة المجسّدة إلى اللغة المبنية داخليا، بمعنى تحويل موضوع البحث من دراسة العلامات اللسانية التي تعدّ موضوعًا مجسدًا إلى دراسة نظام معرفة العلامات المحصلة والممثلة داخليا في العقل. وكما تسعى اللسانيّات التوليديّة التحويليّة إلى أن تُرسي نظرة جديدة للّغة والنحو والتحليل اللّسانيّ وفهم منطلقات الكلام، ممّا أدّى بها إلى رفض جملة من المفاهيم اللّسانيّة الشائعة، واستبدالها بمفاهيم جديدة ومصطلحات غير المصطلحات السائدة، فمن أهم مصطلحاتها (الفونام، الركن، المورفام). وكذا سعت هذه النظرية إلى وضع قواعد كلية لوصف أكبر عدد ممكن من معطيات اللغات الطبيعية الفعلية منها والممكنة التحقق؛ لذا فإن مصطلح (النحو) هنا يحيل إلى نسق القواعد الافتراضية الموجودة في الدماغ، والتي تسهم في تفسير الظواهر الملاحظة. ومن هنا أصبح هدف التوليدية الكشف عن (النحو الكلي الكوني)، فاللغات وإن تنوعت إلى حد كبير فإنها تنتظم في العملية الشكلية نفسها التي تكون الجمل النحوية. (٢) ففي نظر تشومسكي أن ثمة قواعد كلية تولد اللغات الطبيعية تمثل جزءًا من تكوين الإنسان الإحيائي وعلى اللساني أن يشتغل في بحث هاته القواعد. (٣)

---

(١) مباحث في اللسانيات – د/ أحمد حساني صـ ١١٩.

(٢) التوصيف اللساني الحديث لتراكيب النحو العربي قراءة في كتاب: (نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية مازن الوعر – د/ طاهر صالح عالوي، ود/ هدى صالح رشيد صـ ٢٩٩.

(٣) بنيان اللغة – نعوم تشومسكي – ترجمة/ إبراهيم الكلثم صـ ١١ من مقدمة المترجم.

ومن مميزات دراسة هذه النظرية وتطبيقها على اللغة العربية أنها تتبع منهجًا ثابتًا في الوصف والتحليل، كما أنها تنظر إلى اللغة نظرة أقرب إلى طبيعة اللغة حيث إن هذه النظرية تربط جمل اللغة الواحدة بسواها، كما أننا بهذه النظرية نستطيع أن نقارب بين اللغات بطريقة فعالة من حيث المستوى الباطني والمستوى الظاهري. (١) ومن أبرز خصائصها، أنها تحاول أن تعالج التداخل بين الجمل وكيفية ارتباط الجمل ببعضها في إطار جملي تحويلي واحد؛ لذا فإن الباحث في ضوء هذه النظرية "التوليدية التحويلية" يحاول أن يحدد المميزات المختلفة في الجمل ليوجد الصلة القائمة بينه. (٢)

أسس النظرية ومبادؤها:

تقوم النظرية التحويلية على عدة أسس ومبادئ من أهمها ما يلي:

أولا: التفريق بين الكفاية والأداء.

ثانيا: التمييز بين البنية العميقة والبنية السطحية.

ثالثا: اعتبار الجملة الوحدة اللغوية الأساسية.

رابعا: القواعد التحويلية ينجم عند اتباعها جمل أصولية لا غير، كما تحدد كل الجمل المحتملة في اللغة، وعليه فهذه القواعد قادرة على خلق الجمل الصحيحة فليست هي قواعد تقليدية؛ لأن التقليدية معيارية بمعنى أنها تفتر.

خامسا: الإدراك اللغوي والقدرة اللغوية هي صفات إنسانية تكمن في النوع البشري وليست مكتسبة. (٣)

---

(١) دراسات لغوية – د/ محمد علي الخولي صـ ٦٩ – ٧٠.

(٢) في نحو اللغة وتراكيبها – د/ خليل عمايرة صـ ٦٤.

(٣) الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي – علي حرب صـ ١٠٧.

المبحث الأول

نشأة النظرية التوليديّة التحويليّة في الدراسات الغربية الحديثة

لم تنشأ هذه النظرية من العدم، فقد تبع ظهورها إرهاصات عدة مهدت لوجودها حيث جاءت بعد فترة طويلة سادت فيها أفكار دي سوسير التي خرجت منها المدارس البنيوية كالمدرسة البنيوية الوظيفية التي مثلت اتجاهًا قويًّا في أوربا، والمدرسة البنيوية الأمريكية. ويعد (نعوم تشومسكي) أول من أنشأ هذه النظرية. (١) فالمنهج السلوكي في نظر تشومسكي هو منهج غير قادر على تفسير الحدث اللغوي المعبر عن العواطف والمشاعر الإنسانية، كما انتقد السلوكيين في اهتمامهم بالسامع والنص دون المتكلم ودوره في إنتاج الكلام، فموضوع النظرية اللغوية الأولى عنده هو الإنسان متكلم ومستمع مثالي ينتميان إلى بيئة لغوية متجانسة، فهو يرى "أن النظرية اللغوية الأولى يجب أن توجه إلى تحليل مقدرة المتكلم على إنتاج الجمل التي لم يسمعها من قبل، وعلى فهمها، وإدراك الصواب من غير الصواب قياسًا على قوانين النحو في اللغة التي يتكلمها، ويجب أن توجه كذلك إلى وضع القواعد التي تحكم كيفية إنتاج اللغة التي هي ميدان البحث اللغوي".(٢)

ويؤرخ لظهور النظرية التوليدية التحويلية بعام ١٩٥٧م عندما نشر كتاب (البنى النحوية) للغوي الأمريكي نعوم تشومسكي والذي يعد الدستور الأول

---

(١) تشومسكي: أفرام نعوم تشومسكي: (Avram Noam Chomsky) مولود في فيلادلفيا بنسلفانيا الولايات المتحدة الأمريكية: (١٩٢٨م)، عالم لغة وفيلسوف ومؤرخ وناقد وناشط سياسي وعالم إدراكي وعالم منطق أمريكي، أستاذ لسانيات فخري في قسم اللسانيات والفلسفة في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وألف أكثر من ١٠٠ كتاب، ويوصف تشومسكي بأنه أبو علم اللسانيات المعاصر، حيث أسس نظرية النحو التوليدي، التي تعتبر أهم إسهام في مجال اللسانيات النظرية في القرن العشرين، ويُعد شخصية رئيسة في الفلسفة التحليلية. ينظر: (نظرية تشومسكي اللغوية – جزن ليونز صـ ١١: ١٢، والمدارس اللسانية المعاصرة – د/ نعمان بوقرة صـ ١٢٩-١٣٠.

(٢) النظرية التحويلية التوليدية وأثرها في اللغة العربية– معتز إبراهيم عبدالرازق عواد صـ ٤٢.

للنظرية، وقد أتت هذه النظرية بمفاهيم لغوية جديدة منها أن نظام القواعد كما يسميه تشومسكي في بعض الأحيان هو قدرة المرء على الاستعمال غير المحدود لوسائل محدودة، والاهتمام بالصفات العامة المشتركة في اللغات بدلا من التأكيد على الفروق بين اللغات كما تفعل المدرسة البنيوية، أي أن هذه المدرسة تؤمن بما يسمى بالنظرية اللغوية العامة. وكذلك تهتم بالقدرة العقلية التي تكمن وراء الكلام ويسميها تشومسكي بالقدرة، ويميزها عن المظهر الخارجي للكلام أو ما يستغله المرء عمليًّا من هذه القدرة اللغوية، ويسمي هذا المظهر بالإنجاز... وقد تطورت هذه لمدرسة تطورًا سريعًا وحلت محل المدرسة البنيوية في دراسة اللغة، وبلغت مرجلة النضوج عام ١٩٦٥م حين نشر تشومسكي كتابه (جوانب من نظرية النحو) وانتشرت هذه الدراسة في أمريكا وأوربا وأجزاء كثيرة من العالم وأصبحت أهم نظرية لغوية في الوقت الحاضر. (١)

وقد مرت النظرية بسلسلة من **المراحل** حتى بلغت نضجها وآتت أكلها، بدأها تشومسكي بكتابه "البنى النحوية"(syntactic structure عام ١٩٥٧م)، ويعد هذا الكتاب أو هذه المرحلة نقطة التحول الجذرية والانتقال باللغة من مرحلة الوصف إلى التفسير، وقد انصب فيه على النحو أكثر من الدلالة، إلا أنه كان يحس أن ثمة قصورا يعتور نظريته يتمثل في العنصر الدلالي فاستدرك على نفسه وسد هذا القصور في كتابه "جوانب نظرية النحو" الذي أصدره عام ١٩٦٥م وأصبح العنصر الدلالي هو الأساس في تفسير معاني البنى المختلفة، وقد أطلق على هذا التوجه "النظرية النموذجية "وفي هذه المرحلة تبينت البنية العميقة من البنية السطحية وجرى تأكيد أن التركيب الباطني للجملة هو المؤهل لتفسيرها دلاليا. والمرحلة الثانية: قام فيه بإدخال ثلاثة أنماط من القواعد في جسم النظرية: القواعد التفريعية، والقواعد التفسيرية وهي تفسير التراكيب المتولدة في مستوى المكون التوليدي ... كما أنها تربط المكون الدلالي بالمكون الدلالي المركبي، والنمط الثالث القواعد

(١) البنى النحوية – نعوم تشومسكي – ترجمة د/ يؤيل يوسف يعقوب – مراجعة/ مجيد الماشطة – مقدمة المترجم.

المعجمية، ويتلخص إسهامها في إيضاح المفردات المعجمية ووظائفها الدلالية فتتواءم جملها في تركيب صحيح. والمرحلة الثالثة: مرحلة النظرية النموذجية الموسعة التي تجلت في أعماله التي صدرت عام ١٩٧٢م بعنوان "دراسات الدلالة في القواعد التحويلية" وفي هذه المرحلة، وفيها أجرى تعديلا على نظريته بعد شعوره أن ضبط بعض الحقائق النحوية سيظل متعذرًا إلا إذا جرى تخفيف التجريد الذي تمتاز به البنية العميقة، وهو يلخص الصعوبات الماثلة في هذا الصدد بعدم القدرة على تفسير التراكيب الدلالي للموضوع والتركيب العميقة، كما أن التفسير الدلالي في التركيب الضميري العائد يعمل على البنية السطحية لارتباطه بقاعدة النبر الصوتي وهو يقترح لحل ذلك قاعدتين دلاليتين لكل منهما مهمة: الأولى: مهمتها تفسير البنية السطحية. الثانية: مهمتها تفسير البنية العميقة. (١)

فهذه النظرية التوليدية التحويلية لم تظهر ملامحها على السطح دفعة واحدة، إنما مرت بمراحل عديدة حتى بلغت نضجها وآتت أكلها إذ بدأت بمرحلة التراكيب أو البنى النحوية التي ظهرت سنة ١٩٥٦م مع ظهور أول كتاب لتشومسكي بعنوان (التراكيب أو البنى النحوية). وقد تضمنت هذه المرحلة ثلاثة نماذج رئيسة وهي: نموذج القواعد النحوية المحدودة. ونموذج بنية العبارة. ونموذج القواعد التحويلية. والمرحلة النموذجية: التي يمثلها كتاب (جوانب النظرية النحوية) الذي ظهر سنة ١٩٦٥م، وفي هذه المرحلة تطورت المدرسة التوليدية التحويلية سريعا وكثر مريدوها وتحمس لها الباحثون في مشارق الأرض ومغاربها، وحلت محل البنيوية الكلاسيكية، وأصبحت بذلك التفسير اللساني النموذجي لموضوع اللغة، والتي بلغت في لحظة ميلادها الثانية أوج مراحل النضج، وأصبحت أهم وأوسع نظرية لغوية في النصف الثاني من القرن العشرين. وقد استمرت هذه المرحلة التي أولت المكون الدلالي عناية واهتمامًا إلى سنة ١٩٧٠م، والمرحلة التالية التي تمثل امتداد النظرية

(١) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة – د/ كريم زكي حسام الدين صـ ٦٧، والتفكير اللغوي بين القديم والجديد – د/ كمال محمد بشر صـ ١٥٦، والمدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث – د/ التواني التواني صـ ٥٤.

النموذجية، أو مرحلة النظرية النموذجية الموسعة التي تجلت في أعماله التي صدرت عام ١٩٧٢م بعنوان "دراسات الدلالة في القواعد التحويلية". [١] وقد تركزت هذه المرحلة على معالجة المصاعب الناجمة عن فكرة (النحو العالمي) فيما بعد سنة ١٩٧٠م.[٢] إن المدقق لهذه المراحل الثلاث يلحظ مقدار الجهد الذي بذله تشومسكي لإيصال منهجه إلى المهتمين بأحسن صورة ممكنة لتعم الفائدة، ويلحظ الزمن الكبير نسبيًا الذي مرت به نظريته حتى وصلت إلى طور الكمال الذي يرتضيه لنفسه وللعلم والمختصين من بعده.

وترتكز هذه النظرية على الجانب العقلي حيث تعتبر هذه النظرية اللغة نتاجًا عقليًّا خاصًا بالجنس البشري دون غيره، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعقل الإنساني. حيث يرى تشومسكي أن الإنسان قد وُهب ملكة لغوية أو قدرة لغوية، وأن الطفل يُولد مزودًا بهذه القدرة التي تمكنه من تعلم اللغة واكتسابها، ومزودًا بقدرة دقيقة من الأصول النحوية الكلية التي تمكنه من التعرف على ما يسمعه من كلام يتردد من حوله، وهذه الأصول اللغوية الكلية هي جزء مما نسميه العقل. [٣] فاللغة عنده عمل عقلي يرتبط بملكة فطرية يختص بها الإنسان دون غيره من سائر الكائنات. ومن ثم فإن اللغة هي صورة للعقل البشري باعتباره أداة صالحة للتعامل مع كل الاحتمالات والمواقف المختلفة. والهدف الأول من دراسة اللغة الإنسانية عنده هو "معرفة طبيعة العقل البشري وكيف يعمل، وأن تركيب اللغة يتحدد بتركيب العقل الإنساني، وأن وجود خصائص لغوية عامة تجمع كل اللغات لهو دليل على أن هذا الجانب من الطبيعة البشرية واحد وعام عند جميع البشر بغض النظر عن الأصل العراقي

---

(١) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة صـ ٦٧، والتفكير اللغوي بين القديم والجديد صـ ١٥٦ بتصرف.

(٢) ينظر: النظرية التحويلية التوليدية في الفكر اللساني العربي الحديث – بدرة عمار علي فرخي صـ ٢٣ وما بعدها.

(٣) نظرية التوليد والتحويل بين القدرة الكامنة والآداء اللغوي – عبد الله عنبر صـ ٤١١

أو الطبقة الاجتماعية أو الفروق العقلية أو الشخصية أو الطبيعية". [١] ف "تشومسكي" يرى أن عقل الطفل يحتوي على خصائص فطرية، أو ما ينعت بالملكة الفطرية التي تجعله قادرًا على تعلم أي لغة إنسانية، والتي من خلالها يستطيع تكوين قواعد لغته، وذلك عن طريق امتلاكه مجموعة محددة من القواعد النحوية يستطيع من خلالها تكوين عدد غير محدود من الجمل وإرساء قواعد للغته. وقد أكد تشومسكي وجود خصائص نظرية لغوية تفسر لنا كيف يستطيع طفل أن يتقن لغة في وقت قصير جدا رغم الطبيعة التجريدية لقواعد اللغة، ويشبه تشومسكي هذه المعرفة الفطرية بأنها (صندوق أسود صغير) أطلق عليه جهاز اكتساب اللغة، ويصفه (ماكنيل)بأنه يحتوي على أربع خصائص لغوية نظرية هي: القدرة على تمييز أصوات الكلام من الأصوات الأخرى في البيئة. والقدرة على تصنيف الأصوات اللغوية إلى أنواع يجري تهذيبها فيما بعد. ومعرفة أن نوعا ما من النظام اللغوي هو الممكن وأن أنواعا أخرى غير ممكنة. والقدرة على إنتاج نظام لغوي مبسط مما يتوافر أمامه من مواد. [٢]

ومن الواضح أن تشومسكي أقام هذه النظرية مرتكزًا على أسس عقلية منذ أن نشر كتابه (التراكيب النحوية سنة ١٩٥٧م)، حيث "سعى إلى إقامة نظرية عامة للغة، تصدر عن اتجاه عقلي؛ لأن اللغة عنده عمل عقلي يتميز به الإنسان عن الحيوان، وقد تأثر في ذلك بما جاء عن أفلاطون والفيلسوف الفرنسي (رينيه ديكارت) في القرن السابع عشر (١٥٩٦ – ١٦٥٠م) [٣] والذي يطلق عليه اسم "أبو الفلسفة الحديثة". إذ تعد أفكارهما ركيزة ومنطلقًا رئيسًا لبناء النظرية اللغوية لنعوم

---

(١) دراسات في اللسانيات التطبيقية – د/ مازن الوعر صـ ٤٧، ٤٨.

(٢) أسس تعلم اللغة وتعليمها صـ ٣٩.

(٣) ولد رينيه ديكارت في ٣١ آذار سنة ١٥٩٦م في مدينة لاهاي التابعة لإقليم توران في فرنسا، وتوفي في ١١ شباط ١٦٥٠م في السويد دون أن يتزوج، ونقلت رفاته إلى باريس ١٦٦٦م لتوضع في كنيسة سان جرمان دي بره. ينظر: (فلسفة ديكارت ومنهجه دراسة تحليلية ونقدية – د/ مهدي فضل الله – صـ ٧٦ وما بعدها).

تشومسكي والتي ينظر إليها على أنها محاولة لإعادة لفت الانتباه إلى كثير من الأفكار العقلية والآراء الجوهرية – حول المعرفة الإنسانية واللغوية وارتباطها بالعقل – التي قدمت من طرف هذين الفيلسوفين وكان لها دور كبير ومركزي في فهم وتفسير اللغة الإنسانية. ف (أفلاطون) كان يرى أن العقل هو الوسيلة التي نصل بها إلى المعرفة الحقة ... لأن العقل هو من طبع عليها هذه الصفات والمفاهيم المجردة، وهو القاضي المسؤول عن الحكم على المحسوسات. (١) أما (ديكارت) فقد كان يرى أن الله ضامن كل الحقائق على اختلافها؛ وهو يهب العقل الإنساني الحقائق البديهية الأولى التي تتميز بالوضوح والبساطة، والتي هي الأساس الذي تبنى عليه العلوم الإنسانية. (٢) فديكارت أصّل فكرة (الطابع الإبداعي والخلّاق في اللغة)، وذلك عند تفريقه بين الإنسان والحيوان على هذا الأساس، يقول ديكارت في كتابه مقال عن المنهج: "إن أي آلة مصنوعة على نموذج القرد أو أي حيوان لن نستطيع استخدام الكلمات أو أي علامات أخرى مثلما نستخدمها لننقل بها أفكارنا إلى الآخرين... ومن العجب أنه لا يوجد إنسان مهما اشتد غباؤه أو من به لوثة لا يستطيع أن يرتب كلمات متباينة ليؤلف جملة ليوصل بها أفكاره للآخرين، لكن لا حيوان يستطيع ذلك ... ولذلك فنحن في حاجة إلى قدر ضئيل من العقل على الأقل لكي نستطيع الكلام...". (٣) فالعقل في نظر ديكارت يعتبر هو "الشيء الوحيد الذي يجعلنا أناسًا ويميزنا عن سائر الحيوان. وإن كانت الحيوانات تتشابه مع الإنسان في تركيبتها الجسمية المادية وجميع الوظائف التي تؤديها أعضاء جسم الإنسان شبيهة بالوظائف التي تقوم بها أعضاء الحيوانات الأخرى وربما الآلات أيضًا، فهذا لا يعني أنها متماثلة مع الإنسان، وهذا بسبب امتلاكه نفسًا ناطقة عاقلة، فمن وجهة نظر ديكارت أن "اللغة

---

(١) الأصول الفلسفية لنظرية تشومسكي اللغوية – أطروحة دكتوراة للطالبة/ خديجة مانع صـ ٢٠، ٢١.

(٢) فلسفة ديكارت ومنهجه دراسة تحليلية ونقدية صـ ١٦.

(٣) في فلسفة اللغة – محمود فهمي زيدان صـ ١٤٥.

مرآة العقل، إنها انعكاس لما يدور في ذهن الإنسان وعلى هذا الأساس تمثل خاصية مثلى ترتبط بالفكر الإنساني". (١)

وربما يكون تشومسكي قد تأثر بعلماء العربية ولا سيما في ربط اللغة بالجانب العقلي – كما سيأتي – فإن من أبرز علماء العربية الذين ربطوا اللغة بالجانب العقلي كـ وعبد القاهر الجرجاني، وابن جني، والزمخشري، لكن عبد القاهر الجرجاني كان أبرزهم حيث اهتم بظاهرة القدرة اللغوية وأنها ملكة عقلية لدراسة الأداء اللغوي وذلك في نظرية النظم المتمثلة في العلاقات المعنوية بين الأصناف النحوية، فهو يرى كما يرى سيبويه أيضًا بأنه ليس كل كلام منطوق مقبول، فهناك منطق لغوي هو الذي يتحكّم، وليس النسج حسب هوى كل متكلم، وأن اللغة توليد منطقي خاضع للجماعة الناطقة به وتخرج كل الأنماط الجميلة على الصورة التأليفية الجديدة، وهذا ما سنوضحه في موضعه.

وقد نالت هذه النظرية اهتمام علماء اللغة المعاصرين في الغرب والشرق، وأحدثت ثورة في علم اللغة المعاصر بقدرتها على الوعي المتعمق الذي لا يكتفي بمعاينة المستوى السطحي من النظام اللغوي بل يغوص كشفًا عن التفاعل الدلالي المرتبط بالبنى العميقة، فقد حدث في القرن العشرين أن اهتمَّ عدد من المدارس اللُّغوية الغربية بمسائل التركيب، وركزت على دراسته دراسةً شكليةً؛ أي: بعيدةً عن المعنى، واهتم عددٌ آخَرُ من هذه المدارس بدراسة المعاجم، وركزت على الاقتران أو المُصاحبة، ولكن لم يحدث رَبْطٌ بين النحو – والمقصود به التركيب هنا – والدَّلالة، وظلت الأُمُور هكذا إلى أن ظهر "تشومسكي"، ونادى بوجوب مَزْج التركيب بالمعنى، ومِن ثَمَّ وصف منهجه بالنحو التفسيريِّ، ولكنه بالرغم مِنْ إشارته تلك لم يترجم هذه الإشارة إلى دراسة تطبيقية. إن هذه المحاولة دفعتْ باحثًا آخَرَ مُهِمًّا هو (فيلمور) الذي أنشأ مدرسة (الدلاليات العلامية الوظيفية) ووضع فيها نموذجًا يَمزِج فيه بين المعنى والنحو، وجعل المعنى هو أساس بناء الجملة، وأنّ النحو ليس سوى وسيلة لتحويل بِنْيَة المعنى الأساسية إلى جملة سطحيَّة، وتطور هذا

(١) الأصول الفلسفية لنظرية تشومسكي اللغوية صـ ٥٤.

الاتجاه على أيدي (جروبر) و (جاكندوف)، وقد أدى هذا إلى ظهور النحو التوليديِّ، وتولى الريادة هنا "تشومسكي" فنشر نظرية العمل والربط 1981م، وبناها على عدد من القوالب، وأوضح أنها تضم البِنْيَة العميقة، والبِنْيَة السطحية: فالبِنْيَة العميقة عنده تضم قواعد الأساس التي تهتم بالمقولات النحوية وتوزيعها، أما البِنية السطحية فتضم البِنية المنطقية والبِنْيَة الصوتية. فهذه النظرية تعني أن "تشومسكي" اهتم بدَمْج العنصر الدَّلاليّ بالعنصر التركيبيّ، وجعلهما على قَدَمِ المساواة، وبذلك حقق الدمج بين الدلالة والنحو.(١) وبذلك يكون تشومسكي قد قاد ثورة علمية فعلية نجم عنها ظهور أنموذج جديد للتفكير في اللغة، مفاده الاهتمام بالجهاز الذهني للمتكلمين عوض الاهتمام بسلوكهم الفعلي ... حيث ظهر: "النحو التوليدي في الولايات المتحدة مع اللساني نعوم تشومسكي بصدور المؤلفين التأسيسين: "البنى التركيبية"١٩٥٧ و"مظاهر النظرية التركيبية"١٩٦٥م، حيث صاغ فيهما آنذاك مبادئ ومنهجية النظرية التوليدية بانتقادات للسانيات البنيوية الأمريكية ومنهجها التجريبي التصنيفي الاستقرائي بغية تأسيس لسانيات ذات منهج عقلاني استنباطي وهذا تفسيري فرضي؛ إذ تعتمد الحدس اللغوي لدى الفرد.(٢)

فهذه النظرية قد قامت على نقد أنصار الفكر البنيوي التوزيعي الذي كان سائدًا في مجال الألسنية في الخمسينيات حيث كان التيار الألسني يتبع أراء ألسنية بلومفيلد الوصفية البنيانية، التي كانت تحلل الكلمات من حيث الموقع والتوزيع وفق فئات مؤلفه، وتدرس اللغة من خلال مستوياتها (المستوى الصوتي، الصرفي، التركيبي، الدلالي)، وتعتمد هذه المدرسة منهجية علمية موضوعية وأساليب بحث واضحة، كما تعتمد المعايير التحليلية المحددة في وصف وتبيان عناصر اللغة المؤلفة، إلا أن هذه الألسنية لم تكن لتعير اهتمامها إلى متكلم اللغة ولا إلى دوره في تكوين الكلام بل تكتفي بوصف الكلام وصفًا موضوعيًا وتجريبيًّا.(٣) وهذا التصور

---

(١) الدلالة والنحو – مقال لـ د/ صلاح الدين صالح حسنين بتصرف.

(٢) نظرية التوليد والتحويل بين القدرة الكامنة والأداء اللغوي – عبد الله عنبر صـ ٤١١.

(٣) الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية النظرية الألسنية– د/ميشال زكريا صـ١٢.

لم يلق أهمية للقدرة اللسانية التي تتحكم في استخدام ابن اللغة للغته بوصفه عارفًا بقواعدها معرفة ضمنية، وكيفية إنتاجه العقلي للبنية اللغوية، وتفهمه لها، وتصرفه فيها بشكل إبداعي خلّاق، مع قدرته اللسانية على إصدار أحكام ومعلومات تقييمية لما يسمعه من كلام منجز يوافق أو يخالف المنوال النحوي المختزن في دماغه.

ومما سجله تشومسكي من نقد بنّاء على البنيوية اكتفاؤها بالجوانب السطحية للغة يقول تشومسكي: تنحصر (اللسانيات البنيوية) في تحليل ما سميناه البنية السطحية، وفي الخصائص الواضحة في الإشارات وفي التركيبات والوحدات التي يمكن أن تكون جلية في الإشارة من خلال تقنيات التقطيع والتصنيف وهذا الانحصار هو كامل الوعي. لكن لا يكتفي به في ظلّ غياب التفسيرات العميقة، يبدو أن نقطة الضعف الأساسية في مقاربة البنيويين والسلوكيين هي انعدام التفسيرات العميقة والاعتقاد بأنّ الذهن ينبغي أن يكون أبسط في بناه من كل عضو فيزيائي معروف، وأن أولى التقديرات تسمح بتفسير بعض الظواهر التي يمكن أن تلاحظ. (١) فالبنيوية – من منظور تشومسكي– اكتفت بوصف التراكيب اللغوية وتحليلها بطريقة شكلية متجاهلة بذلك الدور الذي يلعبه المعنى على مستوى اللغات، ولم تبذل أي جهد لتحديد القواعد التي يلجأ إليها المتكلّم عند تكوين جمل غير محدودة، ومن ثمة فإنها لم تعط أو تعر أي اهتمام للكفاءة اللغوية، يضاف إلى ذلك أن البنيوية لم تلق النجاح اللازم لاهتمامها بالبنية السطحية فقط، ولم تتمكن بذلك من وضع قوانين شاملة وتعميمات عميقة، وعلى العكس من ذلك فإن القواعد التوليدية التحويلية لم تتوقف عند وصف اللغة بل تعدته إلى تحليلها وتفسيرها، واستنباط القواعد العامّة التي تحكمها. (٢) ومن الانتقادات التي وجهت للبنيوية أيضًا أنها – أي البنيوية – تبقى لسانيات اختزالية تقصر اهتمامها على النسق اللغوي وحده، وقد أومأ العالم الأمريكي أفرام نعوم تشومسكي Chomsky Noam Avram إلى هذه

(١) ينظر: نظرية تشومسكي التحويلية التوليدية الأسس والمفاهيم – د/ مختار درقاوي صـ ٤.

(٢) ينظر: اللسانيات النشأة والتطور – أحمد مومن صـ ٢٠٤، ومدخل إلى المدارس اللسانية – السعيد شنوقة صـ ١١٠.

المسألة موضحًا أن "اللسانيات البنيوية وإن كانت تتمتع بطابع العلمية إلا أن آفاقها ضيقة ومحدودة، فلا يكفي أبدًا أن نصف الظاهرة اللغوية، بل علينا أن نعلل القدرة الإبداعية والإنتاجية التي تخوّل لنا إنتاج وتوليد الجمل اللامتناهية في لغة بعينها".(١)

فالفرق بين المنهج البنيوي والمنهج التحويلي يتمثل في أن: المنهج البنيوي يتسم بأنه: منهج وصفي، يرتكز على الاستقراء، يعنى بالبناء السطحي للكلام، النزعة التجريبية أساسه، اللغة في كنف هذا المنهج تعد عملية آلية، الغرض منه وصف الوحدات اللسانية وتصنيفها (مورفيمات – فونيمات)، إهمال وإقصاء للدور الإيجابي للمتكلم، الانطلاق في تحليل اللغة من مدونة Corpus، اختزال افتراض العموميات والاقتصار على وصف الصيغ الملاحظة من خلال الفئات والأقسام الخاصة بكل لغة، يهتم بمظهر اللغة السلوكي، يحاول الإجابة عن السؤال الآتي: ما هي اللغة؟ (٢) أما المنهج التوليدي التحويلي فهو: منهج نظري تفسيري، يرتكز على الاستنتاج الاستنباطي، يعنى بالعمليات الداخلية التي تسبق الكلام، النزعة الذهنية أو العقلية أساسه، اللغة في كنف هذا المنهج عملية إبداعية حيوية، يفسر الآلية الكامنة في الذهن والقادرة على توليد عدد غير محدود من الجمل، الاهتمام بالخلق اللغوي اللامتناهي للمتكلم، الانطلاق من حدس المتكلّم لنحوية الجمل، البحث عما هو مشترك في كل اللغات (الكليات اللغوية) من خلال تفسير العمليات الداخلية، يهتم بمظهر اللغة الحركي داخل ذهن المتكلّم، يحاول الإجابة عن السؤال الآتي: كيف يتم إنتاج اللغة وإبراز المعنى؟ (٣)

ومن هنا ندرك أن النظرية التوليدية التحويلية أصبح الهدف فيها مختلفًا عما كان عليه في الألسنية البلومفيلدية، فتشومسكي يتخطى هدف وصف اللغة باتجاه هدف تفسيرها وتحليل تركيب البنية اللغوية وتحولها من بنية إلى بنية أخرى

---

(١) نقلا عن: لسانيات الجملة، لسانيات النص: قراءة في المفهوم والعلاقة – جلال الدين مصطفاوي صـ ١٢٩.

(٢) نظرية تشومسكي التحويلية التوليدية الأسس والمفاهيم صـ ١٢٣.

(٣) السابق نفسه.

بالاستناد إلى حدس المتكلم ومعرفته الضمنية بقواعد لغته، فهذه المعرفة بالذات هي التي يصر تشومسكي على دراستها. فمتكلم اللعة برأيه هو موضوع الدراسة الألسنية حيث هو قادر على إنتاج عدد لا متناه من الجمل. والجدير بالذكر أن الألسنية البلومفيلدية تصر على إهمال المتكلم في البحث الألسني .... فالنظرية الألسنية عند تشومسكي يجب أن تحلل مقدرة المتكلم على أن ينتج الجمل التي لم يسمعها من قبل وعلى أن يتفهمها. فيقوم عمل الألسني بصياغة القواعد التي بمقدورها إنتاج اللغة مادة البحث.... ويتكون الجزء الأكبر من القواعد من علم التراكيب فيركز على استقلالية المستوى التركيبي الذي يتميز عن المستوى الصرفي وعن المستوى الصوتي من جهة، ومن جهة أخرى يتميز عن المستوى الدلالي .... وتهدف القواعد إلى تحليل الجمل الأصولية فقط وتتخذ شكل أولية توليدية تنتج بواسطة عدد محدد من القواعد والرموز عددًا لا متناهيا من الجمل ... وتعكس القواعد خبرة المتكلم الذي بإمكانه إنتاج عدد لا متناه من الجمل وتفهمه، من خلال خبرة محدودة باللغة وطارئة". (١)

فتشومسكي عرف اللغة على أنها مجموعة غير متناهية من الجمل إلا أن هذه الجمل اللغوية لها عناصر وأجزاء متناهية الطول، وقد عرف القواعد على أنها آلة مولدة تستطيع أن تولد كل الجمل السليمة من حيث النحو ليس إلا (أي لا تولد الجمل الخاطئة). ثم إن هذه القواعد ينبغي أن تعطي وصفًا تركيبيًا صحيحًا لكل جملة مصوغة. فقواعد اللغة العربية مثلا تعطي وصفا تركيبيا صحيحا لكل الأبنية المحتملة لصياغة الجملة العربية. وقد حدد تشومسكي بعض الخصائص اللسانية التي ينبغي أن تتوفر في قواعد اللغة وهي: أن تكون قادرة على صياغة جمل لا متناهية انطلاقًا من قوانين محددة، وأن تكون قادرة على توليد الجمل النحوية المقبولة والمستساغة لدى المتكلم بلغته وأن تمتنع عن توليد جمل غير نحوية، وأن تكون قادرة على تركيب وصف تركيبي لكل جملة مصوغة وذلك في طريقة

(١) الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية النظرية الألسنية – ميشال زكريا ص ١٢: ١٣ بتصرف.

واضحة. [١] يقول مازن الوعر: "الشيء العجيب والمدهش في نظر تشومسكي بالنسبة إلى اللغة هو: الخلق اللامتناهي؛ ذلك لأن التحليل اللغوي لا ينبغي أن يكون وصفًا لما كان قد قاله المتكلمون، وإنما هو شرح وتعليل للعمليات الذهنية التي من خلالها يمكن للإنسان أن يتكلم بجمل جديدة لم تطرق سمعه من قبل". [٢] فالقواعد التوليدية التحويلية ما هي إلا نظام من القواعد أو التنظيم القواعدي الذي يقرن الأصوات اللغوية بالدلالات الفكرية والكامن ضمن الكفاية اللغوية، وهي قواعد علمية تتناول كفاية المتكلم اللغوية، فمتكلم اللغة ينتج جمل لغته؛ لأنه اكتسب بصورة ضمنية قواعد اللغة الكامنة ضمن كفايته اللغوية، وهذه القواعد تقود عملية التكلم ولا تخضع للملاحظة مباشرة، بل تستنبط من الجمل. [٣] ولهذه القواعد ثلاثة مكونات: فونولوجي، ودلالي، وتركيبي أو نحوي، فالمكون الصوتي أو الفونولوجي (Phonological componen) هو الذي يظهر منطوقًا في البنية السطحية، ويقوم بتخصيص كل تركيب لغوي بنطق خاص، انطلاقًا من لفظ كل مورفام على حدة. أما المكون الدلالي (Semantic Component): فهو الذي يوضح البنية العميقة، ويعين معنى الجملة وطريقة تفسيرها.. وهذان المكونان تفسيريان يقتصر عملهما على تحديد تفسير صوتي ودلالي. [٤] أما المكون الثالث فهو المكون التركيبي أو النحوي (Syntactic Component) ويهتم هذا المكون بتوليد الجمل السليمة بشكل طبيعي بالاعتماد على عدد معقول من القواعد. يقول عبد القادر الفاسي الفهري: "آلة التحليل اللغوي التي ترد عند تشومسكي ١٩٥٧ في المكون التركيبي هي عبارة

---

(١) النظريات النحوية والدلالية في اللسانيات التحويلية والتوليدية محاولة لسبرها وتطبيقها على النحو العربي – د/ مازن الوعر صـ ٢٧.

(٢) السابق صـ ٢٥.

(٣) الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية "الجملة البسيطة صـ ١٢، ٢١،

(٤) الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية "الجملة البسيطة" صـ ١٥، ١٦، والنحو التوليدي التحويلي عند تشومسكي التطورات وعناصر التحويل– د/ محمد سالم الرجوبي صـ ٧٨.

عن مجموعة من القواعد مهمتها توليد كل – وفقط كل – الجمل النحوية مقرونة بأوصاف بنيوية تبين كيف تأتلف الأجزاء لتكوّن جملة". (١) وعليه فنظام لغة ما يتكون من ثلاثة مستويات رئيسة على النحو الآتي: المستوى النحوي وله مكونان هما: (المكون التوليدي، والمكون التحويلي)، والمستوى الدلالي الذي يوضح البنية العميقة ويفسرها، والمستوى الصوتي وهو الذي يظهر منطوقا في البنية السطحية. فالمستوى الصوتي والمستوى الدلالي مستويان تفسيريان إذ يقتصر عملهما على تحديد تفسير صوتي، ودلالي للبنى المجددة من قبل المستوى النحوي، وهذا يوضح مركزية المستوى النحوي بالنسبة للقواعد، فالنحو عند تشومسكي هو القلب لهذا النظام، وهو المستوى الوحيد الذي يعكس المظهر الإبداعي للغة.(٢)

وتشومسكي يهدف من نظريته هذه الانتقال باللغة من مرحلة الوصف إلى مرحلة التفسير، وفي الوصول إلى ما يسمى باستيفاء التفسير، ولم يكن الهدف من هذا الاستيفاء أن توصف الظواهر باللجوء إلى نظام من الضوابط فحسب، بل يشرح لماذا هي على ما هي عليه، كما لا يريد أن يتوقف عند حدود الوصف اللغوي، بل يتعداه إلى إعطاء تفسير علمي دقيق لكيفية حدوث الظاهرة اللغوية حتى نتمكن من معرفة الطبيعة البشرية أينما كانت. (٣) والنقطة التي يثيرها تشومسكي هي أن جمل اللغة متجددة بصورة دائمة وعددها لا متناه، مما يستتبع عدم إمكانية دراسة الأداء الكلامي من خلال دراسة لائحة جمل اللغة المحتمل ورودها والتي اختبرها متكلم اللغة، فقواعد اللغة برأي تشومسكي تصف الكفاية اللغوية التي يمتلكها متكلم اللغة والتي تقود الأداء الكلامي. (٤) فهما يمثلان حجر الزاوية في النظرية اللغوية عند تشومسكي. فالكفاءة اللغوية هي: المعرفة الضمنية لمتكلم اللغة

---

(١) اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية – عبد القادر الفاسي الفهري صـ ٦٥.

(٢) النحو التوليدي التحويلي عند تشومسكي التطورات وعناصر التحويل صـ ٧٨.

(٣) أصول تراثية في اللسانيات الحديثة صـ ٦٧، والمدارس اللسانية المعاصرة – د/ نعمان بوقرة صـ ١٣٨-١٣٩.

(٤) الألسنية التوليدية والتحويلية – د/ ميشال زكريا صـ ١٧

بقواعد لغته، أو هي قدرة المتكلم على الجمع بين الأصوات اللغوية والمعاني في تناسق مع قواعد لغته، وهي التي تقود عملية التكلم عند الإنسان بمعنى أنها توجه الاستعمال اللغوي عند الإنسان. (١) أو هي: الإمكانية أو المعرفة الضمنية الذهنية لمتكلّم اللغة المثالي بقواعد لغته، حيث تمكنه من إنتاج عدد لا نهائي من الجمل من عدد محدود من الفونيمات الصوتية، والحكم بصحة الجمل التي يسمعها من وجهة نظر نحوية تركيبية، والربط بين الأصوات المنتجة وتجمعها في مورفيمات تنتظم في جمل، وربطها بمعنى لغوي محدد. (٢) وتتضمن الكفاءة المقدرات الآتية: إنتاج عدد لا محدود من الجمل، وإدراكه من الناحية النظرية، وتمييز الجمل الصحيحة نحويا من غير الصحيحة، وفهم تركيب الجمل ومعرفة دلالاتها ووظائفها، وتمييز الجمل التي يكون بعضها صياغة جديدة للبعض الآخر، واستبانة الغموض في الجمل. (٣) أما الأداء: فهو الأداء اللُّغوي الفعلي لفظًا أو كتابة. أو هو: الاستعمال الآني للغة ضمن سياق معين. (٤) أو هو: الوجه الظاهر المنطوق للمعرفة اللغوية الكامنة التي تظهر براعة الفرد في استعمال كفاءته اللغوية في إنتاج الجمل وفهمها، فالأداء هو الصورة الواعية التي تمثل الصورة المعقولة من اللغة. (٥) أو هو الجمل المنتجة التي تبدو في فونيمات ومورفيمات تنتظم في تراكيب جملية خاضعة للقوانين اللغوية الكامنة. (٦) وتمثل الكفاية المخزون المعرفي في ذهن الإنسان من القواعد والقوانين اللغوية الكامنة، بينما يمثل الأداء استعمال الفرد المتكلم لهذه القوانين". (٧)

---

(١) مباحث في النظرية الألسنية – د/ ميشال زكريا صـ ١٥٤، والألسنية العقلانية وانتقاد علم النفس السلوكي – د/ ميشال زكريا صـ ٤٤: ٤٥.

(٢) قضايا ألسنية تطبيقية – د/ ميشال زكريا صـ ٦١.

(٣) النحو التوليدي والتحويلي – شريفة رحمي صـ ٢٥٢.

(٤) الألسنية العقلانية وانتقاد علم النفس السلوكي – ميشال زكريا صـ ٤٤ – ٤٥.

(٥) محاضرات في اللسانيات – خالد خليل هويدي، ونعمة دهش الطائي صـ ١٧٨.

(٦) المسافة بين التنظير النحوي والتفكير اللغوي (بحوث في التفكير النحوي والتحليل اللغوي) – د/ خليل عمايرة صـ ٢٥٢.

(٧) السابق صـ ٢٧٦.

فهذه النظرية تستند – إذن – على آلية توليد جمل صحيحة اعتمادًا على كفاية المتكلم أو الكاتب اللغوي ويعني ذلك توفر قواعد تنظيمية ذهنية في عقل متكلم اللغة تتيح له ما شاء من الجمل. كما تستند هذه النظرية إلى التَّمييز بين البنية السَّطحيَّة والبنية العميقة، وقد تحدث (تشومسكي) على وجهي الظاهرة اللغوية السطحي والعميق، أو كما سماه الظاهر والخفي، فللغة جانبان الأول داخلي والآخر خارجي، وكل جملة يجب أن تدرس من هذين الجانبين، أما الأول: فيعبر عن الفكر، وأما الثاني: فيعبر عن شكلها الفيزيقي – (أي عن الشكل الخارجي للجملة) – باعتبارها أصواتًا ملفوظة. وهذه الأفكار هي التي ظهرت بعد ذلك عند تشومسكي تحت اسم البنية العميقة والبنية السطحية، ولما كانت البنية العميقة تعبر عن المعنى في كل اللغات فإنها تعكس أشكال الفكر الإنساني، وعلينا أن نعرف كيف تتحول هذه البنية إلى كلام السطح، وهذا هو الأصل في النحو التحويلي الذي يهتم بالقوانين التي تحدد البنية التحتية التي تربطها ببنية السطح.[1] فالجانب (الخارجي) يترجم الجانب الأول (الداخلي) ويحوله من أفكار ومعاني في الذهن إلى كلام واضح على السطح. فهناك جمل يمكن تصنيفها دون أي تردد على أنها نحوية إلا أنها لا معنى لها منها: تنام الأفكار الخضراء عديمة اللون بتهيج، و إن الرباعية تشرب التسويف، وينام الخميس والجمعة في فراش واحد، بطبيعة الحال ليست أي جملة من هذه الجمل قابلة للتفسير إذا ما وضعناه في سياق مناسب ووسعنا معنى واحدا أو أكثر من معاني كلماتها لتشمل أمورا تتعدى معناها الاعتيادي أو الحرفي وذلك عن طريق المبادئ التقليدية كالاستعارة أو الكناية أو المجاز ... وكل ما ينبغي قوله في هذا المجال الآن هو أن تنام الأفكار الخضراء عديمة اللون بتهيج، وما شابهها من الجمل هي جمل سليمة التركيب نحويا وأنها لا تحمل معنى حرفيا بالرغم من استقامتها النحوية، وهذا يعني أنها لو فسرت هذه الكلمات التي تحتويه هذه الجملة

(١) النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج – د/ عبده الراجحي صـ ١٢٤.

على نحو حرفي فإن الجمل تحتويها تبقى من غير معنى. (١) ولأنها تحتوي على تناقضين، ولما فيها من الشذوذ الدلالي. (٢)

وقد عرف ميشال زكريا البنية السطحية والبنية العميقة بقوله: "البنية السطحية أي البنية الظاهرة عبر تتابع الكلام الذي يتلفظ به المتكلم، والبنية العميقة أي القواعد التي أوجدت هذا التتابع... والبنية العميقة هذه بنية ضمنية تتمثل في ذهن الإنسان المتكلم والمستمع، فهي بالتالي حقيقة عقلية قائمة يعكسها التتابع الكلامي المنطوق الذي يكون البنية السطحية، ومن هنا ترتبط البنية العميقة بالدلالات اللغوية... في حين أن البنية السطحية ترتبط بالأصوات اللغوية المتتابعة ويتم تحديد تفسير الجمل الصوتية عبرها. (٣) وفرق بينهما آخرون بأن البنية العميقة يقصد بها: الصورة الضمنية الذهنية للقواعد التي تصاغ منها الجمل التي تعبر عن الفكر والمعنى الكامن في نفس المتكلم، وتحتوي على كل العلاقات النحوية والوظائف التركيبية والمعلومات الدلالية اللازمة لتفسير الجمل واستعمالاتها الممكنة. أما البنية السطحية فهي تتابع الكلمات التي تصدر عن المتكلم، أو الكلام المادي المتجسد بالفعل ليعبر به عن المعاني الموجودة في الذهن، وتحتوي على كل المكونات الفونولوجية اللازمة للتفسير الصوتي. (٤)

أما عن حدود عمل كل بنية فهي أن البنية العميقة تتصل بالمعنى، والبنية السطحية تتصل بنظام العناصر والصوت، ومن ثم فالبنية العميقة عبارة عن معان مجردة مركبة لا يمكن نطقها إلا إذا تحولت إلى بنية سطحية. وتتميز البنية العميقة من السطحية بأن العميقة كامنة ولا تتضح، ولكنها تستحضر في الذهن، وهي التي تهتم بالمعنى، وهي عامة لكل اللغات، إذ هي انعكاس بسيط لشكل من أشكال العقل.

---

(١) اللغة والمعنى والسياق – جون لاينز – تر/ عباس صادق الوهاب، ومراجعة/ يوئيل عزيز صـ ١١٣، ١١٤ بتصرف.

(٢) ينظر: السابق صـ ١٢٨، ١٢٩.

(٣) مباحث في النظرية الألسنية صـ ١١١، ١١٢.

(٤) محاضرات في اللسانيات صـ ١٧٨.

فهي عبارة عن المعنى الموجود في ذهن المتكلم وتقاس بما يُسمى بالكفاءة اللغوية لدى الفرد، وهذه الكفاءة يتبعها ما يُسمى بالأداء الكلامي والذي يُعتبر ترجمة للبنى العميقة الموجودة في ذهن المتكلم، وما الجمل التي يتكلم بها المتكلم ويسمعها السامع إلا مظهر سطحي للمعنى العميق. وعلى هذا الأساس تخص الكفاءة اللغوية البنية العميقة، على حين يخص الأداء الكلامي البنية السطحية. فالمستوى السطحي هو الذي يحدد شكل الجمل وينظمها كظاهرة مادية، أما البنية العميقة فهي التي تعنى بالدلالة، وتحتوي على عدد من الجمل النواة الأساسية القابلة للتحويل، وذلك بتطبيق مجموعة محددة من قواعد التحويل كالحذف والإضافة والاستبدال وتغيير الموقعية على عدد محدود من الجمل الصحيحة الأساسية (الجمل النواة أو الإخبارية) للحصول على عدد غير متناه من الجمل الصحيحة، مثل الجمل المنفية، أو الاستفهامية، أو المبنية للمجهول، أو المفيدة للحصر والقصر. فالبنية السطحية: هي ما يكون ملموسًا على السطح من جمل منطوقة أو مكتوبة، بحيث تحول العمليات العقلية في البنية العميقة إلى بنية سطحية ملموسة، أما البنية العميقة فهي: العمليات العقلية للتفكير في الجمل قبل تحويلها لبنى سطحية، بالإضافة إلى "المعنى الذي يفهمه القارئ والسامع عندما يسمع قراءة البنية السطحية. ومثال ذلك قولك: ضربت زيدًا جالسًا، فيمكن أن نفهم من الجملة السابقة معنيين هما: الحال من الفاعل، والحال من المفعول. وهذا الترابط غير المنكر بين البنية السطحية والبنية العميقة لا يمنع وجود فروق أو سمات تنماز بها البنية السطحية عن العميقة أو العكس، فإنّ كانتا متطابقتين فلا داعي للفصل بينهما.

أصول النظرية التوليدية التحويلية عند الغرب:

أرجع العلماء هذه الفكرة إلى أصول فلسفية تعود إلى نظرية أفلاطون حول العالم. "تقول نظرية أفلاطون: إن للعالم وجهًا ظاهريًّا نعتمد في إدراكه على شهادة الحواس وقد تكون هذه الحواس خادعة لا موضوعية فيها، ووجه خفي حقيقي يدرك بالعقل.. أو كما يقول (كانط): "إن العالم الظاهري يخفي عالمًا حقيقيًا". فالأداء اللغوي يمثل ظاهرة الخطاب في النظرية التوليدية، والكفاية اللغوية تمثل حقيقة

الخطاب، وعلى اللغوي – كما يقول تشومسكي – ألا يبني أحكامه على بنية اللغة السطحية، وإنما عليه أن يصل إلى البنية التحتية العميقة، ليطلع على القواعد الذهنية التي تنتظم اللغة. وقد تأثر تشومسكي في ذلك أيضا بالمفكر الألماني همبولت (Humboldt) الذي يرى أن للغة شكلين شكلا خارجيًا (آليًّا)، وشكلا داخليًا (عضويًا) والشكل الأخير هو الأهم؛ لأنه الأساس في كل شيء، أو هو البنية العميقة لما يحدث بعد ذلك على السطح. (١) ف (همبولت) صاحب فكرة الجانب الخلّاق في اللغة، حيث يرتبط الجانب الخلاق بالعقل والذي يمتلكه الإنسان فحسب، على عكس العمل الحيواني الذي نعته بالآلي، وبحيث يرى (همبولت) أن اللغة عمل العقل فعليه لا بد أن تصدر من الداخل وليس عن السطح، وأن هذه اللغة ذات شكلين: داخلي وخارجي: فالشكل الداخلي عضوي متلاحم وينتج عما يسمى بالبنية العميقة للغة، وهذه النظرة نابعة من نظرته إلى الطبيعة الإنسانية والحرية الفردية، فالطبيعة الإنسانية ليست خاضعة للعوامل الخارجية إنما تتطور من داخلها، وهذا التحرر من العوامل الخارجية يقود إلى العمل الخلّاق الذي يصدر بدوره من الداخل أي من البنية العميقة للغة. كذا تأثر تشومسكي بالنحو التقليدي؛ لأنه في رأيه أكثر اقترابًا من الطبيعة الإنسانية في دراسة اللغة. فالقواعد التحويلية ليست بديلًا عن القواعد التقليدية، وإنما هي مكملة لها. وإذا كان النحو: "صناعة علمية يعرف بها أحوال كلام العرب من جهة ما يصح وما يفسد في التأليف ليعرف الصحيح من الفاسد". (٢) (٢) وإذا كان النحو أيضًا: "النحو صناعة علمية ينظر لها أصحابها في ألفاظ العرب من جهة ما يتألف بحسب استعمالهم لتعرف النسبة بين صيغة النظم وصورة المعنى، فيتوصل بإحداهما إلى الأخرى". (٣) فالمدارس اللسانية الحديثة – ومنها التوليدية التحويلية – تتعامل مع الكلام الإنساني أيضًا لتصل إلى الهدف نفسه. ومما لا شكّ فيه أيضًا أنه قد استفاد من بعض أفكار المدرسة البنيوية، ويرى تمام حسان:

---

(١) النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج صـ ١٢٢: ١٢٣.

(٢) الاقتراح في أصول النحو صـ ٢٤.

(٣) السابق نفسه.

أن النحو التحويلي قد انسدل من النحو التوزيعي مع التنويه إلى أن تشومسكي قد وازن بين تعاليم بلومفيلد، وهمبولت، ودي سوسير، ومنطقية بوريال، والمنطق الرمزي، وعلم النفس، منتهيًا بالعقلانية في فهم اللغة. كما تأثر تشومسكي أيضًا بالدراسات البنيوية حيث كانت نشأته العلمية في ظل المدرسة البنيوية إذ كان – أستاذه (زيليج هاريس) تلميذًا لبلومفيلد، ومن هنا لا نستطيع إنكار تأثره بالبنيويين. [١] وهذا ما يؤكده تمام حسان بقوله: "العلامة تشومسكي تلميذ لهاريس الذي هو تلميذ لبلومفيلد منشئ اللغويات التوزيعية في أمريكا، ومن هنا يُعتبر النحو التوليدي حفيدًا إن لم يكن ابنًا مباشرًا للنحو التوزيعي، ولكن تشومسكي آخى بين تعاليم بلومفيلد وتعاليم "همبولت" ووصفية "دي سوسير" ومنطقية" بورت رويال "وانتفع مع كل ذلك بالمنطق الرمزي وعلم النفس وأقر على نفسه بالعقلانية في فهم اللغة.[٢] فالعقل الإنساني عند "تشومسكي" يحوي آلية مكونة من مجموعة قواعد متناهية بمقدورها تحليل الجمل ومساعدة متكلم اللغة على إنتاج جمل لا متناهية بمعجم لغوي متناه فضلًا على فهم الجمل التي لم يسبق له أن سمعها، ورصد الالتباس الحاصل في الجملة.

أيضًا يتضح أثر "ديكارت" في "تشومسكي" في إقراره بالجانب العقلي للغة، فقد تبنى في ذلك أفكار ديكارت واعتمد عليها في توجيه دراسته للغة، وذلك في كتابه "اللسانيات الديكارتية" وقد جعل من أفكار ديكارت العقلية حجر الأساس في نظريته؛ لذا عد تشومسكي اللغة تنظيمًا عقليًّا وأداة للتعبير والتفكير لا تخضع للتفسير الآلي أو لفكرة الحافز والمثير. فالعقل مصدر المعرفة وأساس كل إدراك، وكانت العلاقة بين اللغة والفكر قد ظهرت منذ أفلاطون، وبهذا المنحى العقلاني أخذ تشومسكي يناقش اللغة التي عدها نافذة إلى العقل، وقد اعتمدت فلسفة العقل عنده على فلسفته حول قواعد اللغة فاستعمل مصطلح القواعد في وصفه للغة، فضلا عن معرفته الأساسية للتراكيب اللغوية، فعارض بذلك النزعة البنيوية (الشكلية) التي

(١) النظرية التوليدية ومناهج البحث عند تشومسكي– د/ منذر عياشي صـ ٣٤.

(٢) إعادة وصف اللغة العربية ألسنيا – د/ تمام حسان صـ ١٧١ – ١٧٢.

تعنى بالنظر إلى اللغة على أنه نسق مكتوب أو منطوق، بينما نظر تشومسكي إلى اللغة على أنها نشاط عقلي ذهني؛ لذا فهو يسعى إلى اكتشاف الحقيقة العقلية الكامنة وراء السلوك، فسعى إلى الملاءمة بين ما هو ذهني فكري وما هو لغوي، وبهذا عد تشومسكي مجددا للفكر الديكارتي حيث اعتمد على أفكاره التي تجعل العقل موجهًا للغة واللسانيات التوليدية وفي بناء نظريته حول التوليد والتحويل.... كذا دعا ديكارت في إطار نظريته إلى القول بفطرية اللغة مستلهما هذه الفكرة من أفلاطون، وقد تبنى تشومسكي مفهوم القدرة اللغوية الفطرية للإنسان.(١) فمن أصول هذه النظرية: أنها رأت البشر يولدون ولديهم معرفة فطرية بالمبادئ (القواعد العامة والمشتركة في اللغات البشرية) مثل: الفاعل المنطقي، ونظام الأصناف، والجمل المجردة، والجملة الفعلية. إذ يرى تشومسكي أن أي طفل يولد في بيئة ما قادر على أن يتكلم بلغة هذه البيئة بطريقة عفوية، وأن ينتج عددا لا متناهيا من جملها. كما أنه قادر على فهم وإدراك عدد غير محدود من جملها التي يسمعها أو يقرؤها حتى لو لم يسبق له أبدًا سماعها. وهذا إن دل فإنما يدل على أن معرفة الإنسان بلغته هي خاصية مشتركة بين بني البشر، وأن معرفة الإنسان بلغته هي ملكة فطرية قبل أن تكون مكتسبة. فتشومسكي يقر ما ذكره ديكارت من أن القول بعدم فطرية اللغة هو كالقول بأنه لا فرق بين الإنسان والحجر والحيوان؛ لأن القول بأن اللغة "ليست فطرية كالقول بأنه لا فرق بين حفيدتي وصخرة وأرنب. بعبارة أخرى لو أخذت صخرة وأرنبا وحفيدتي ووضعتهن في مجتمع يتحدث أناسه اللغة الإنجليزية فسيتعلم كل منهن اللغة الإنجليزية. لو اعتقد الناس بهذا فسيعتقدون بأن اللغة ليست فطرية. لو اعتقدوا بأن هناك فرقا بين حفيدتي والأرنب والصخرة فسيعتقدون بأن اللغة فطرية... لا ريب أن اللغة ملكة فطرية. والقول بأن اللغة فطرية هو تعبير عن الاعتقاد بوجود طبيعة داخلية وأساسية بشكل ما تُميز حفيدتي عن الصخور والنحل والقطط والشمبانزي".

---

(١) ينظر: أثر ديكارت في نظرية تشومسكي وتحليله للغة – د/ هدى صلاح رشيد صـ ٨٢ وما بعدها بتصرف.

(١) فرجوع تشومسكي إلى المبادئ الديكارتية كان بدافع الكشف عن عمل العقل الإنساني من خلال إقرار المفاهيم الأساسية التي تنصل منها البنيويون، وبذلك عد تشومسكي من العقلانيين الذين يرون أن العقل الإنساني هو وسيلة المعرفة على النقيض من التجريبين... ومن أهم المسائل التي استمدها تشومسكي من فلسفة ديكارت: اللغة وعمل العقل، وفكرة الفطرة اللغوية. فالعقل عند ديكارت في حد ذاته هو مصدر المعرفة وأساس كل إدراك، وبالتالي فهو أسمى الحواس المادية ومستقل كليا عنها، والعقل عنده أيضا يشكل في العمق جوهر الذات البشرية وهويتها الثابتة وخصوصيتها.... فالقدرة على اللغة عنده لا تعتمد على وجود آلة النطق فحسب، بل إن ما يميز اللغة عند الإنسان هو ارتباطها بالعقل... وبهذا المنحى العقلاني أخذ تشومسكي يناقش اللغة التي عدها نافذة على العقل... كذلك كان ديكارت سبّاقًا إلى القول بفطرية اللغة، وقد استلهم تلك الفكرة من أفلاطون. والأفكار الفطرية عند ديكارت هي الأفكار التي لا دخل للخيال في حياكتها، ولا شأن للملاحظة الحسية والتجربة في صنعها، وإن كان الاختبار الحسي يدلل على صحتها. وهي بالتالي أفكار بديهية حدسية يؤمن بها كل إنسان عاقل؛ لأنها لا تثير أدنى شك في صحتها... فالحواس لا يمكن الوثوق بها لأنها خدعة، أما الأفكار التي لا يمكن الشك بها فهي الأفكار الفطرية؛ لأن مصدرها هو الله وهو الذي يزوده بها عند الولادة، وهي أيضًا الأفكار التي يستفيدها الإنسان حال اكتمال قواه العقلية ولدى احتكاكه بالعالم الخارجي؛ لأنها موجودة بالقوة في العقل منذ الولادة وليست موجودة بالفعل. وقد عمل تشومسكي على إثبات هذه الفكرة وربطها بالعلوم المعرفية مثل علم النفس والفلسفة والرياضيات والعلوم المعرفية في عمومها، وتوصل إلى حقيقة مفادها أن النظام اللغوي مفطور في إعدادنا الإحيائي. (٢) كذا تأثر بديكارت في التمييز بين البنية العميقة والبنية السطحية للغة حيث يقول تشومسكي: "يذهب ديكارت إلى أن للغة جانبًا داخليًّا باطنًا وجانبًا خارجيًّا (ظاهرًا)، ويمكن أن تدرس

(١) بنيان اللغة – نعوم تشومسكي – ترجمة/ إبراهيم الكلثم صـ ٧٥، ٧٦ بتصرف.

(٢) ينظر: السابق نفسه بتصرف.

الجملة من وجهة النظر التي تعبر بها عن الفكر، أو من وجهة النظر التي تدل على الشكل الفيزيائي: من وجهة نظر التفسير الدلالي، أو من وجهة نظر التفسير الصوتي... وإذا استخدمنا مصطلحاتنا الحالية فإنه يمكن أن نميز البناء الباطن عن البناء الظاهر". (١)

فالأصل الذي قامت عليه النظرية عقلي بحت، إذ تبنت الآراء العقلانية من منطلقات لغوية علمية، وتعتبر النظرية اللغة نتاجًا عقليًا خاصًا بالجنس البشري دون غيره من الأجناس ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعقل الإنساني، لذلك فإن للغة شكلين: خارجي وداخلي، أو هو البنية العميقة لما يحدث بعد ذلك على السطح. فاللغة نظام عضوي تتداخل فيه كل الأجزاء ويؤدي فيه كل جزء دوره وفقًا للعمليات التوليدية التي تكون البينة العميقة، لذلك فالكفاءة اللغوية نظام من التطور التوليدي. وبجانب استخدام ديكارت للتمييز بين الجانب الباطن والجانب الظاهر للغة، فإن تشومسكي يورد استخدام الفيلسوف وعالم اللسانيات الألماني همبولت – (فيلهلم فون هومبولت ١٧٦٧–١٨٣٥) – لهذا التمييز فيقول: "ومصطلحا البناء الباطن والبناء الظاهر يقصد بهما ما يتضمنه مصطلحا همبولت (الشكل الباطن والشكل الظاهر) للجملة، ومصطلح الشكل يمكن أن يقرن بمصطلح النحو التوليدي نفسه". (٢) وكان مصطلح الإبداعية اللغوية عند همبولت هو قلب علم اللغة منذ القرن السابع عشر على الأقل، وهذه الإبداعية اللغوية يعنى بها في الاتجاه التوليدي: القدرة على إنتاج الجمل غير المحدودة. (٣) مما يدل على عمق تأثر تشومسكي بهمبولت في إقامة نظريته اللغوية. وهذا يعني أن تشومسكي قد أسس هذه النظرية بعد مطالعة معمقة في تاريخ الفكر الفلسفي الأوروبي أمثال أفلاطون وديكارت وكانط وهمبولت وغيرهم. فجذور هذه النظرية – إذن – فلسفية بحتة؛ لأن موضوعها هو العقل البشري وما يحدث فيه من آليات يتمخض عنها مجموع الجمل التي تعبر عن المعاني

(١) ينظر: اتجاهات التحليل اللغوي – د/ بكري محمد الحاج صـ ١٦٥: ١٦٦.

(٢) السابق صـ ١٦٦.

(٣) السابق صـ ١٦٥.

والحقائق الكامنة في الذهن. فهي نظرية تبحث في الظاهر والخفي معا. وكذلك الفلسفة هي علم يبحث في ظاهر المعارف وخفيها. فظاهر هذه النظرية يتمثل في دراستها للبنيات السطحية اللغوية، وأما باطنها فيتمثل في دراستها لطريقة بناء الفكر الإنساني لهذه البنى اللغوية (الجمل). وهذا يعني أن دراستها الباطنية تصف وتفسر معرفة المتكلم بلغته، وبهذا فهي تفتح للسانيات نافذة على عالم الماورائيات أو ما يسمى بـ الميتافيزيقيا الذي له علاقة بالفلسفة، كما تفتح نافذة أخرى على عالم الإدراك والاكتساب الذي له علاقة بعلم النفس اللغوي.

كذا أفاد تشومسكي من بعض أفكار الاتجاه البنيوي خاصة في التمييز بين الكفاية اللغوية والأداء مستفيدًا من تمييز دي سوسير بين اللغة والكلام. إضافة إلى إفادته من معطيات العلوم الحديثة مثل الرياضيات والمنطق، اللذين استخدم صياغتهما في جعل القواعد النحوية واضحة، وقابلة لأن تولد كل الجمل الصحيحة التي تكون مقبولة لدى المتحدثين باللغة المعينة. (١) ومن المؤثرات التي تأثر بها صاحب النظرية التحويلية أيضا كان النحو التقليدي، وقد أكد هو نفسه أنه أكثر اقترابًا من الطبيعة الإنسانية في دراسته للغة وأشار إلى الحاجة إلى إعادة أصول هذا النحو التقليدي على أسس وقواعد أكثر علمية. (٢)

(١) اتجاهات التحليل اللغوي – د/ بكري محمد الحاج صـ ١٦٦، ١٦٧.

(٢) النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج صـ ١٤٣.

المبحث الثاني

النظرية التوليدية التحويلية في الدراسات العربية القديمة

لقد ركزت معظم الأبحاث التي تؤرخ للمنهج التوليدي في ثقافتنا العربية على تثبيت فترة السبعينات كبداية لمعرفة العرب لهذا المنهج، لكنها في المقابل لم تحدد أول مؤلّف توليدي عربي بالرغم من أن جميع المؤلفات التوليدية العربية تحمل تواريخ ثابتة، وقد يكون لهذا التحفُّظ – في نظر البعض –علاقة بمواقف بعض اللسانيين العرب الذين لم يعلنوا صراحة عن تبنيهم للمنهج التوليدي بالرغم من أن أبحاثهم تصب في صلب هذا المنهج .... لقد أنتج انتقال الخطاب اللساني التوليدي من الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية العديد من المحاولات العربية الجادة، التي سعت جاهدة إلى تطبيق هذا النموذج اللّساني بمختلف تشعباته وتفرعاته المنهجية، على اللغة العربية، ما جعل الساحة اللّسانية العربية تشهد تراكمًا معتبرًا أسهم بشكل كبير في تحديد معالم الدرس اللّساني العربي الحديث، وإعطائه المكانة المطلوبة في مسيرة الفكر اللّغوي العالمي الحديث، وقد شكّل هذا التراكم قفزة نوعية شملت كل مستويات الدراسة اللّغوية صوتًا، وصرفًا، ودلالة، وتركيبًا. وبالرغم من هذا التراكم الذي شهده ويشهده الخطاب التوليدي العربي إلا أن الأبحاث الجادة – وخاصة الأبحاث التي واكبت تطور النموذج التوليدي الغربي وتجدده – تبقى ضئيلة ومحصورة في بعض الأسماء العربية ممن اجتمعت لديهم سعة الاطلاع والإدراك العميق للنظرية التوليدية بمختلف مصادرها المنهجية، في مقابل إدراكهم العميق باللغة العربية، ووعيهم الكبير بخصوصيتها. (١)

لكن هذا لا يعني بالضرورة عدم وجود جذور فكرية أو أيدولوجية لهذه النظرية في الفكر العربي القديم؛ لأنه إذا كانت الآراء الفلسفية والعقلانية هي المصدر الذي ارتكز عليه تشومسكي في وجود نظريته اللغوية، وأن هذه النظرية في الأصل ذات أصول فلسفية ومرتبطة بالفلسفة والفكر الديكارتي حين اتخذ من

(١) الاتجاه التولىدي في النحو العربي الحدىث دراسة في فكر خلىل أحمد عماىرة من خلال كتاب – في نحو اللغة وتراكىبها – زكموط بوبكر صـ ٤٥، ٤٦.

منهج ديكارت العقلي أساسًا له في فهم وتحليل الظاهرة اللغوية، وبآراء (همبولت) كما ذكرنا، فالربط بين الفكر اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديثة لا سيما بعد ظهور علم اللغة الحديث علمًا مستقلا له كيانه المستقل بين بقية العلوم الأخرى أصبح من المسائل والقضايا المهمة. ففي تراثنا العربي القديم ما يدل على تناولهم لأصل الفكرة الفلسفية، وللتحقق من ذلك يمكننا الرجوع لمؤلفات العصر الوسيط في أوربا التي تذكر فيها أسماء الكتب العربية وأسماء أصحابها ونصوصها ففيها نجد أن (ديكارت) أخذ في القرن السابع عشر بنظرية الفهم كما وضعها (ابن سينا)، كما أخذ بعده (كانط) بحوالي ١٤٠ سنة بنظرية العقل كما وضعها (الغزالي)، واستمرت هاتا النظريتان تحددان صورة الفكر الأوربي في من خلال الدمج والتركيب والتحليل والتركيب في التحليل والتحليل في التركيب، وأن (ديكارت) حاول فهم نظرية العقل في بداية عهده بالتفلسف كما في كتابه (قواعد لهداية العقل) مبتدأ بأصعب كتاب للغزالي ألا وهو (المعارف العقلية) بعد أن أدرك السذاجة في (الفن الكبير) للمبشر ريموند لول (R. Lull) برده الوجود إلى الأشكال الهندسية بدون منهج يقوم على الترتيب المنطقي. فديكارت تأثر بالإمام (الغزالي) في كتابه السابق وكتابه (تهافت الفلاسفة) كما تأثر بابن سينا وغيرهما من علماء العرب القدامى، كما ظهر تأثر (كانط) في كتابه الذي وضعه ١٧٧٠م (في العالم المحسوس والعالم المعقول) بما كتابه الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة) خاصة في تحديد ماهية الزمان والمكان، ولكنه لم يكتشف في هذا الكتاب نظرية العقل كما عند الغزالي. [١] كما اهتم العرب بكافة طوائفهم بما يُسَمَى الظاهر والباطن للكلام؛ وبخاصة في القرآن الكريم، فنتج عن ذلك فريق يرفض الباطن تمامًا ولا يعترف إلا بالظاهر وهم (الظاهريّة)، وفريق أوغل في تأويل الباطن والاعتماد عليه وهم (الباطنّية)، وفريق ثالث كان موقفه وسطًا يتعامل مع الظاهر وإن احتاج إلى تأويله والاستعانة بالباطن لم يتوان في ذلك. كذلك كان علماء أصول الفقه من العلماء

(١) ينظر: الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي (نقد العقل التاريخي) – د/ محمد ياسين عريبي صـ ١١٨ وما بعدها بتصرف.

الذين أدركوا أن لكلام العرب ظاهرًا وباطنًا، وأن العلم بالشريعة يتوقف على العلم باللغة. فَلَا يَفْهَمُهَا – (الشريعة) – حَقَّ الْفَهْمِ إِلَّا مَنْ فَهِمَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةِ حَقَّ الْفَهْمِ؛ لِأَنَّهُمَا سِيَّانِ فِي النَّمَطِ مَا عَدَا وُجُوهَ الْإِعْجَازِ.... وَقَدْ قَالَ الْجَرْمِيّ: "أَنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً أُفْتِي الناس (في الفقه) من كتاب سيبويه". (١) وقد علل ذلك الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) بقوله: "إِنَّهُ الْقَدْرُ الَّذِي يُفْهَمُ بِهِ خِطَابُ الْعَرَبِ وَعَادَتَهُمْ فِي الِاسْتِعْمَالِ، حَتَّى يُمَيَّزَ بَيْنَ صَرِيحِ الْكَلَامِ وَظَاهِرِهِ وَمُجْمَلِهِ، وَحَقِيقَتِهِ ومجازه، وعامه وخاصه، ومحكمه ومتشابهه، ومطلقه، ونصه وفحواه ولحنه ومفهومه". (٢) وهذا هو عين ما يطلق عليه البنية السطحية والبنية الباطنية التي يجب على عالم الشريعة أن يكون عالمًا بهما ومتفطنًا إليهما.

كما أن الربط بين جهود علماء العرب القدامى في دراسة النحو العربي ونظرية تشومسكي التوليدية التحويلية وإعطاء صورة عن مدى ترابط التراث اللغوي القديم والبحث اللغوي الحديث ومعرفة الجوانب التحويلية في النحو العربي وسبق العرب فيها هو من آصل الجوانب في ذلك. فبالبحث والتأمل في دراسات القدامى من علمائنا نجد أن النحاة العرب في مختلف مدارسهم ومذاهبهم النحوية قد اهتموا بنظرية العامل، وبالبنيتين السطحية والعميقة، فهم وإن لم يستعملوا مصطلح (البنية العميقة) إثر معالجتهم للتراكيب النحوية المحولة رغم حضور مفهومه لديهم، لكن جاءت الإشارة إليه بألوان تعبيرية مختلفة تبرز بوضوح أن دراستهم للبنية السطحية وانشغالهم بإعرابها لم يغض طرفهم وعقلهم عن البنية العميقة لما يدرسونه أو يعربونه. فمظاهر اهتمامهم بالبنية العميقة كثيرة كثرة مفرطة في كتبهم وأبحاثهم اللغوية، ومن ذلك قولهم في كثير من كتبهم: (التقدير، وتقدير الكلام، وأصل الكلام، والمعنى، ... إلخ)، وهي كلها تعني أن هناك بنية عميقة وراء البنية السطحية المحوّلة، وذلك إيذانًا بالبنية العميقة وذلك أثناء دراستهم للبنية السطحية، وذلك لمعرفتهم أنّ الاكتفاء بوصف البنية السطحية لا يعني إنكار البنية العميقة،

(١) الموافقات – إبراهيم بن موسى الغرناطي الشهير بالشاطبي ٥٣/٥.

(٢) السابق ٥٤/٥.

بوصفها خاصّة لغويّة إنسانية. وقد استُعمل مفهوم البنية العميقة في التفريق بين معاني التراكيب الإسنادية في الصيغ العربية التي يكون ظاهرها مُلبسًا. فمفهوم البنية العميقة هو المؤدي إلى إزالة اللبس، كالتمييز بين الحقيقة والمجاز. فالمبادئ التي ينادي بها التحويليون لا تختلف إجمالا مع ما جاء به نحاة العربية، فالنحو العربي يلتقي مع النظرية التوليدية التحويلية في عدة جوانب، منها صدور كل منهما عن أساس عقلي. كما تبين أن نظرية التحويل تظهر اتفاقًا لافتًا ونظرية النحو العربي فالرتبة، والحذف والزيادة، والأصالة والفرعية، والبنية السطحية والبنية العميقة، والقدرة الكامنة والأداء اللغوي عناصر مشتركة بينهما.

وإذا كانت نظرية العامل وهي من أحدث النظريات اللغوية التي تؤسس على أساسها الدراسات النحوية عند علماء المدرسة التوليدية التحويلية وركيزة من ركائزها، إذ حظيت هذه النظرية باهتمام اللغويين المحدثين في الربع الأخير من القرن العشرين، حيث فرضت هذه النظرية نفسها على ساحة الدراسات اللغوية، بحيث أصبحت النموذج الأمثل عند علماء النظرية التوليدية التحويلية، فقد ألف "تشومسكي" رائد هذه النظرية ومؤسسها عملين مهمين حول نظرية العامل، مبينًا أهميتها وفاعليتها في تحليل التراكيب النحوية وإلقاء الضوء عليها. وإذا كان تشومسكي يرى أن نظرية العامل والربط السياقي تمثل ذروة ما توصلت إليه نظريته من اكتمال، هذه النظرية التي بذل قصارى جهده من أجل أن تكون نظرية لغوية متماسكة، فإن العامل في النحو التوليدي شأنه شأن العامل في النحو العربي من حيث أهمية هذه القضية ومركزيتها واعتماد أغلب الظواهر النحوية عليها، إذ تعد قضية العامل النحوي من أبرز قضايا النحو العربي؛ فهي الركيزة التي يقوم عليها، ولها مكانة كبيرة ومميزة جدًا عند نحاتنا الأوائل منذ بدايات النحو العربي الأولى على النحو الذي سنبينه، وإن رفض هذه الفكرة بعض لغوييننا المحدثين الذي كتبوا مصنفات في نقد النحو، وإعادة وصف اللغة العربية القديمة أمثال تمام حسان، وإبراهيم مصطفى، وغيرهما ممن يسمون بالوصفيين المتبنين لفكرة البنيوية العربية القائمة على فكرة الوصف الخارجي للظواهر اللغوية دون تقديم أي تفسير أو تعليل

لها انطلاقًا من إنكار وجود العامل في النحو؛ ذلك أن انتقال المنهج الوصفي للدرس العربي لم يراع فيه أصحابه خصوصية التراث العربي وساروا على منهج الوصفيين من الغربيين، فسلّموا بأن ما صح من نقد الأوروبيين لنحوهم التقليدي يمكن أن ينسحب أيضًا على النحو العربي، حيث اتخذت اللسانيات الوصفية الغربية من نقد الدراسات التقليدية لنحوهم – (ويعنون به منهج النحو القائم على أفكار أرسطو عن طبيعة اللغة اليونانية، يقول دي سوسير عن النحو المعياري: "إن هذه الدراسة التي بدأها الإغريق وأخذها عنهم الفرنسيون اعتمدت على علم المنطق، وهي تفتقر إلى النظرة العلمية ولا ترتبط باللغة نفسها وليس لها من هدف سوى وضع القواعد التي تميز بين الصيغ الصحيحة وغير الصحيحة، فهي دراسة معيارية تبتعد عن الملاحظة الصحيحة للحقائق، ومجالها محدود ضيق" [(١)]) – مسوغًا لمشروعيتها وأحقيتها بتحويل مسار الدراسات اللغوية خصوصًا بعد أن وجدت أفكار اللساني دي سوسير رواجًا كبيرًا وانتشارًا واسعًا في أوربا بداية القرن العشرين. ولعل هذا هو ما دفع بعض الباحثين المحدثين من علماء العربية الذين كان لدراستهم في الغرب تأثير في منهجهم وتفكيرهم وتبنيهم لكل ما يرونه جديدًا عند الغرب إلى رفض العديد من الموضوعات والقضايا والمفاهيم التي كانت موجودة في الدراسات النحوية العربية القديمة القائمة على أساس منطقي عقلي فلسفي، فهم رافضون للعلة والعامل والإعراب التقديري وعدد من الأصول والمفاهيم الموجودة في التراث. وقد وقع هؤلاء في مفارقة كبرى حين تبنوا اللسانيات الغربية بتفكيرهم البنيوي الوصفي وحاولوا في الوقت نفسه إعادة وصف اللغة العربية القديمة. "فالبنيوية الوصفية – كما هو معروف – تعنى بدراسة اللغة ووصفها كما هي عليه أي على موضوعها الحالي، وموضوع اللسانيات اليوم هو اللغة الحية أو الواقع اللغوي كما هو، وقد كان اللسانيون العرب على وعي تام بهذه الحقيقة فقد أنجزوا رسائلهم الجامعية على هذا الأساس فدرسوا اللهجات العربية. إلا أننا نجدهم حين يؤلفون في اللسانيات يكتبون في نقد النحو، وإعادة وصف اللغة

(١) علم اللغة العام – فردينان دي سوسير– ترجمة/ يوئيل يوسف عزير صـ ١٩.

العربية القديمة ولا يشعرون أنهم معنيون بدراسة اللغة العربية المعاصرة أو بحل مشكلاتها". (١)

ولو نظرنا إلى المنهج الوصفي عند الغرب لوجدنا أنه يعيب على النحو القديم أمورًا عدة هي نفسها التي نادى بها المحدثون من علمائنا أمثال تمام حسان، وإبراهيم مصطفي، ومهدي المخزومي، وعبد القادر الفاسي الفهري الذي كان من أشدّ أنصار القطيعة مع التراث اللغوي العربي في الدرس اللساني المعاصر، فهو يرى أنه من الخطأ "الاعتقاد أن الآلة الواصفة للغة العربية الحالية أو القديمة تحتاج ضرورة إلى مفاهيم القدماء وأصولهم، أو بعبارة أخرى إلى الفكر النحوي العربي القديم، وقد بيّنا في عدّة مناسبات أن هذا التصوّر خاطئٌ، وأن الآلة الواصفة الموجودة عند القدماء ليس لها أيّ امتياز في وصف العربية، بل هي غير لائقة في كثير من الأحوال". (٢) فهؤلاء لهم تصورات لسانية جديدة تسعى إلى أن تقيم أركانها على أنقاض التراث النحوي العربي، وذلك بنقده ودحض أطروحاته والتشكيك في الكثير من منطلقاته وتوصيفاته وتعليلاته، بتعلّة أنّها لا تتماشى وما وصل إليه علم اللّغة الحديث. وكالُوا الاتهامات إلى النحاة العرب القدامى في أكثر من مناسبة وفي أكثر من موضع وانتقدوهم انتقادات شديدة، وذلك أسوة بالنقد الذي كان يوجهه أعلام كبار من المدارس البنيوية الوصفية في أوروبا إلى الأنحاء الغربية القديمة، وخاصة منها النحَوْين اللاتيني والإغريقي، وكأّن ما ينطبق على الأنحاء الغربّية ينطبق بالضرورة على كّل الأنحاء القديمة، ومن ضمنها النحو العربي. ومن أهم هذه الانتقادات التي وجهوها للنجو الغربي القديم: تعليله للظاهرة اللغوية وإخضاع اللغة لأصول المنطق، وسن القواعد وفقًا لميول الباحث وفرضها على اللغة فرضًا، وفرض منطق اللغة اليونانية على اللاتينية دون مراعاة خصوصية الظاهرة اللغوية، والذاتية بمعنى تحديد القواعد وفقًا للدارس نفسه بناء

(١) نشأة الدرس اللساني العربي الحديث (دراسة في النشاط اللساني العربي) – د/ فاطمة الهاشمي بكوش صـ ٩٩.

(٢) اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية – عبد القادر الفاسي الفهري صـ ٦١، ٦١.

على فهم المعنى أولًا، والتركيز على التعليل عند تفسير الظاهرة اللغوية اعتمادا على تصورات غير لغوية بدل الملاحظة، واعتماد الجملة الخبرية أساسًا لأقسام الكلم أدى إلى إقصاء الأنماط الأخرى من الكلم واعتبارها أشكالا منحرفة من الجملة الخبرية، واعتماد المنطق الأرسطي الخاص باللغة اليونانية في تحليل اللغات الأوروبية دون مراعاة خصوصية كل لغة، وأن النحو التقليدي لم يميز بين التمثيل الصوتي والتمثيل الخطي للغة فخلط بين نظام اللغة المنطوقة ونظام اللغة المكتوبة، والخلط بين مستويات التحليل الصرفي والنحوي والصوتي، وافتقار النحو التقليدي للمنهج العلمي الموضوعي الذي يعتمد دراسة الأشكال اللسانية باعتبارها أنماطا يسهل وصفها ورصدها من خلال قوانين العلاقات، كما هو الحال في اللسانيات الحديثة، نحو استخدام التقويس في إطار المنهج التوزيعي، أو المشجرات في المنهج التوليدي التحويلي، غير أن النحو التقليدي يعتمد على المنهج الذاتي الذي يرصد القواعد ويحددها بناءً على فهمه الخاص للنص، وبذلك يرتبط بالباحث ذاته، وليس بالظاهرة.(١) وهذا هو ما جعل تشومسكي ينشئ نظريته على أنقاض البنيوية التي انقطعت عن النظرية اللسانية التقليدية. وهنا نقول لهم: إن النحو العربي القديم فيه الكثير من مظاهر النحو الوصفي التي لا يمكن تجاهلها أو إنكارها مثل اتصال النحاة الأئمة العرب بالواقع اللغوي، وأخذ اللغة من أفواه العرب الخلص المشهود لهم بالفصاحة اللغوية باعتبار المكان والزمان المحددين؛ وذلك حرصًا منهم صفاء اللغة ونقائها باعتبارها لغة القرآن الكريم، وقد قامت دراساتهم على العلة والتفسير والعامل، لكنه – أي المنهج الوصفي عند نحاتنا القدامى – يختلف عن أتباع المدرسة البنيوية الوصفية الحديثة عند الغرب ومن سار على نهجهم من المحدثين العرب، حيث دفعهم تجاهلهم للتفسير والعلة إلى توجيه نقد حاد للنحو التقليدي؛ لاعتماده على المنطق، فهم يرون أنه يجب الاكتفاء بوصف الكلام من الناحية النحوية دون الوصول إليها تأويلا أو تعليلا؛ لذا فهم يسعون إلى تغيير النحو القديم وإخضاعه بما يوافق البحث العلمي الموضوعي على النحو الذي

(١) انظر: النحو العربي في مواجهة العصر – د/ إبراهيم السامرائي صـ ٢٤، ٢٣.

وجدناه في كلام دي سوسير السابق، وهو من أخطر ما يكون على لغتنا العربية الفصحى التي تكفل الله – ﷻ – بحفظها؛ لما في ذلك من قطع الصلة بتراثنا الذي هو مصدر عقيدتنا الراسخة. فهَمُّ هؤلاء اللسانيين البنيويين العرب المحدثين – تماشيًا مع معطيات علم اللغة الحديث عند الغرب من دون وعي أو تأمل بخطورته، فليس كل ما يستقيم في لغة ما يصلح تطبيقه بالضرورة على لغة أخرى – هو إخضاع اللغة العربية لمناهج النظريات الغربية ومحاولة تطبيقها عليها متجاهلين أن لغتنا هي منبع ثقافتنا ووعاء فكرنا الإسلامي وعنوان حضارتنا العربية الإسلامية التي كان لها الفضل وأبلغ الأثر في الحضارة الغربية الحديثة؛ لذا وجهوا سهامهم النقدية للنحو العربي وحاولوا إثبات أن فيه ثمة أوجه من القصور والنقص، ومن ذلك كانت دعوتهم إلى إلغاء نظرية العامل إحدى هذه السهام، ومن هؤلاء تمام حسان الذي كان يرى أن فهم القرائن المقالية يغني عن فكرة العامل، و "أن التعليق هو الفكرة المركزية في النحو العربي، وأن فهم التعليق على وجه كافٍ وحده للقضاء على خرافة العمل النحوي والعوامل النحوية؛ لأن التعليق يحدد بواسطة القرائن معاني الأبواب في السياق ويفسر العلاقات بينها على صورة أوفى وأفضل وأكثر نفعًا في التحليل اللغوي لهذه المعاني الوظيفية النحوية". (١) وكذا قوله: "ما العامل إذًا؟ الحقيقة أن لا عامل ... وبهذا نرجو أن نكون قد بينا فساد العامل في النحو، بل فساد التعليل الذي هو أصل العامل". (٢) وكذلك إبراهيم مصطفى الذي ذكر أن "النحاة في سبيلهم هذا متأثرون كل التأثر بالفلسفة الكلامية التي كانت شائعة بينهم، غالبة على تفكيرهم، آخذة حكم الحقائق المقررة لديها. رأوا أن الإعراب بالحركات وغيرها عوارض للكلام تتبدل بتبدل التركيب، على نظام فيه شيء من الاضطراد؛ فقالوا: عرض حادث لا بدُ له من محدث، وأثر لا بدُ له من مؤثِّر، ولم يقبلوا أن يكون المتكلم محدث هذا الأثر؛ لأنه ليس حرًا فيه يحدثه متى شاء. وطلبوا لهذا الأثر عاملا مقتضيًا، وعلّة موجبة، وبحثوا عنها في الكلام فعددوا هذه

(١) اللغة العربية معناها ومبناها – د/ تمام حسان صـ ١٨٩.

(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية – د/ تمام حسان صـ ٥٧.

العوامل، ورسموا قوانينها....". [١] وتابعهما في ذلك مهدي المخزومي [٢]، وعبد القادر الفاسي الفهري على النحو الذي سبق ذكره. وربما تأثروا في ذلك بـ ابن مضاء القرطبي (ت ٥٩٢ هـ) الذي وضع كتابًا سماه (الرد على النحاة) وقد دعا فيه إلى إلغاء نظرية العامل قال: "إن إجماع النحويين عن بكرة أبيهم على القول بالعامل ليس بحجة على من خالفهم". [٣]

ومن هنا نقول: إن نظرية العامل التي كانت إحدى ركائز النظرية التوليدية التحويلية تشكل عند القدامى البنية العامة لنظرية النحو العربي، فهي الركيزة التي يقوم عليها، كما أنها أحد أرقى وأعرق النظريات النحوية التي يكاد يجمع عليها النحاة القدماء من علمائنا، كما يتفقون على أن ظواهر النحو في حركات الإعراب وارتباطها بما تدل عليه ومتغيرات التركيب حسب السياق اللغوي ومقتضيات الأحوال إنما هي من آثار العوامل. يقول عبده الراجحي: "إن العامل يمثل جانبًا تحويليًا وإنه حجر الزاوية في النحو العربي، وأن التحويليين يقرون أن النحو ينبغي أن يربط البنية العميقة بالبنية السطحية، والبينة العميقة تمثل البنية العقلية أو الناحية الإدراكية في اللغة، وأن دراسة هذه البنية تقتضي فهم العلاقات لا باعتبارها وظائف على المستوى التركيبي، ولكن باعتبارها علاقات للتأثير والتأثر في التصورات العميقة ومن ثم تكون قضية – العامل في الحق صحيحة في التحليل اللغوي، وأنها قد عادت الآن في المنهج التحويلي على صورة لا تبتعد كثيرًا عن الصورة التي جاءت في النحو العربي: ذلك أن التحليل النحوي عند التحويليين يكاد يتجه إلى تصنيف العناصر النظمية وفق وقوعها تحت تأثير عوامل معينة ينبغي على الدارس النحوي أن يعرفها ابتداء، وأن المصطلحات التي يستخدمها التحويليون في هذا المجال لا تكاد تختلف كثيرًا عن كلام النحاة العربي القدامى". [٤]

---

(١) إحياء النحو – د/ إبراهيم مصطفى صـ ٣٣.

(٢) ينظر: في النحو العربي نقد وتوجيه – د/ مهدي المخزومي صـ ١٤: ١٦.

(٣) الرد على النحاة – ابن مضاء القرطبي – تح د/ شوقي ضيف صـ ٩٣ بتصرف.

(٤) النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج صـ ١٤٤.

فهذه النظرية – (العامل)– كانت موضع اهتمام النحاة العرب القدامى، إذ من المعلوم النحو العربي قائم على فكرة العامل. "وقد صدرت هذه الفكرة صدورًا طبيعيًّا عن المعرفة الإسلامية، إذ حين جمع النحاة الأوائل اللغة وبدأوا ينظرون فيها وجدوا أن الكلمة العربية في بعض أنواعها تتغير أواخرها حين تدخل في تركيب جملي، وقد رأوا أن هذا التغير لا يرجع إلى الكلمة ذاتها، وإنما يخضع لنظام خاص في اللغة العربية، هذا النظام تحدده العلاقة بين الكلمات في الجملة، فالضمة في الفاعل والفتحة في المفعول به سببهما الفعل، والكسرة في المجرور سببها حرف الجر أو المضاف، وقد سموا هذه الأسباب عوامل؛ لأنها تعمل فيما بعدها، وقد استقرت فكرة العامل عند نحاتنا العرب الأوائل منذ أول الأمر. وكان "الخليل بن أحمد الفراهيدي" له دور كبير في تثبيت أصول هذه النظرية وأنه هو الذّي مدّ فروعها. (١)

ولعل اعتماد نظرية العامل عند "تشومسكي" على عنصري الأثر والمضمر والتفاعل الكائن بينهما هو الذي دفعه إلى أن يجعل منها قاعدة كلية يفترض فيها أن العامل في المفعول هو الفعل، وأن العامل في الفاعل ما يسمى الصرفة والتّي تتضمن صفات التطابق والزمن والجهة. (٢) لكن بالنظر في نظام الجملة العربية ندرك أنه يختلف تمامًا فيها عما ذكره "تشومسكي" في نظرية العامل، حيث لا تتضمن جمل العربية وجود عاملين أحدهما يخص الفاعل والآخر يخص المفعول، فالعامل في تراكيب العربية يعمل في الفاعل والمفعول على السواء، الفعل مثلا يقوم بعملية الرفع في الفاعل والنصب في المفعول، والفعل الناسخ يقوم بالرفع في المبتدأ والنصب في الخبر.

ففكرة العامل في النحو العربي نشأت نشأة لغوية بدأت منذ نشأة الدرس النحوي ابتداءً من التأثير والتفاعل بين الأصوات والحروف، وانتهاءً بالمؤثرات

(١) ينظر: أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث في مجالي مفهوم اللغة والدراسات النحوية – د/ حسام البهنساوي صـ ٥٨.

(٢) السابق صـ ٥٧.

الفاعلة في تغيير أواخر الكلمات داخل التراكيب المختلفة. ونظرية العامل عند تشومسكي والتي هي محرك التوليد هي النقل المشابه لنظرية العامل عند سيبويه. إذن فبدل أن نتحدث عن نظرية العامل عند سيبويه تركناها وأخذناها عن تشومسكي الذي يمكن أن يكون قد أخذها عن سيبويه ونشرها، وبدأ اللغويون العرب المعاصرون ينشرون العاملية (عاملية تشومسكي) وهي نفسها عاملية سيبويه، وقد بينت أنَّ نظرية العامل شغلت حيزًا كبيرًا من دراسات النحاة العرب، فهي من أعمدة الدرس النحوي العربي، وممَّا لا شك فيه أن النحاة قد تأثروا بما قاله سيبويه عن العامل، ومن ذلك قوله: "وتأخير الخبر على الابتداء أقوى لأنه عامل فيه". (١)، وقوله: "الأول عامل في الآخر" (٢)، وقوله: "وهذا مبتدأٌ بعد اسم وهذا الكلام في موضع خبره وهو فيه أقوى لأنَّه عاملٌ في الاسم الذي بعده" (٣)، وقوله: "وما يَعْمَلُ من أسماء الفاعلينَ والمفعولينَ عَمَلَ الفعل الذي يتعدَّى إلى مفعول وما يعمل من المصادر ذلك العملَ" (٤)، وقوله: "هذا باب ما يَعْمَلُ فيه الفعلُ فيَنتصبُ وهو حالٌ وقع فيه الفعلُ وليس بمفعولٍ" (٥)، وقوله: "ونظير ذلك من كلام العرب أَجْمَعُونَ لا يجرى في الكلام إلا على اسمٍ ولا يعمل فيه ناصب ولا رافع ولا جار". (٦) "فنظرية النحو العربي قد قامت – إذن – في تعليل الحركة الإعرابية وتفسير العلاقات بين مكونات الجملة على مبدأ العامل والمعمول، واستقرت نظرية العامل وتولّدت عند النحويين من البحث في العلل النحوية، وانتهوا إلى أنه لا حركة إعرابية بدون عامل، وتوسعوا في العامل توسعًا كبيرًا فتحدثوا عن العامل اللفظي والعامل المعنوي وعن أثره في تغيّر العلامة الإعرابية، وكل جملة تتألف من عامل

(١) الكتاب – سيبويه ١٢٤/٢.
(٢) السابق ٢٧٥/٢.
(٣) السابق ١٤٧/١.
(٤) السابق ٣٣/١.
(٥) السابق ٤٤/١.
(٦) السابق ٣٣٤/٢.

ومعمول وبينهما علاقة ورابطة، وأصبحت نظرية العامل في الدرس النحوي موجّهة لكثير من الأساليب والصيغ العربية، ووُسِمت بسببها بعض أقوال العرب بالشذوذ والقلة؛ لعدم مطابقتِها لمقتضيات الإعمال وضوابطه عند النحويين، كما تدخلت هذه النظرية في صياغة المصطلحات النحوية كألقاب حركات الإعراب وغيرها، وتحديد التعاريف والحدود، اعتمدوا العامل منهجًا في التبويب والتأليف وراعوه في ذلك". (١)

وللعامل عندهم علاقة متينة ووثيقة بالمعنى؛ إذ قامت فكرة العامل في أهم محاورها ومبادئها على مراعاة المعنى، والعلاقة بين العامل والمعمول ليس شكلية فحسب بل منضبطة بضوابط المعنى، وبدءًا من تصنيف العوامل من حيث اللفظ والمعنى والأصالة والفرعية وشروط العمل وتسلط العامل فهذه كلها تخضع في غالبيتها إلى عنصر المعنى الذي يفرض وجوده في ضبط العلاقة بين العامل والمعمول، وفكرة العامل إنما قامت في أساسها على فكرة إجلاء المعاني والكشف عنها، وللعامل أثره في الربط بين الألفاظ في الجملة، وفي العلاقات المعنوية المتمثلة في الوظائف المعنوية. (٢) وفي التراث العربي – أيضًا – مئات الشواهد، والأفكار، والمفاهيم التي تظهر بوضوح وجلاء أن النحو العربي ومنذ نشأته الأولى لم يكن قوالب نظرية تدير وجهها للدلالة، وإنما كانت الدلالة هاجسهم في الدرس والتحصيل، والتفسير، والتأويل، وقد تحركوا بحذر شديد ودقة متناهية في دائرة النظم بمعية الدلالة مزاوجين بين الوظيفة النحوية (البنية السطحية أو الشكل الخارجي) والوظيفة الدلالية (البنية العميقة أو الشكل الباطني أو الداخلي للغة)، منبهين إلى أن أي اختلال في نظام الجملة يؤدي إلى ضياع المعنى الدقيق للجملة المعينة، وقد كان مدار الكلام عند النحاة المتقدمين على تأليف العبارة وما فيها من حسن أو قبح؛ لأن وضع الألفاظ في غير مواضعها دليل على قبح النظم وفساده. (٣)

---

(١) نظرية العامل في النحو العربي – د/ مصطفى بن حمزة صـ ٣٢، ٤٥.

(٢) ضوابط الفكر النحوي – د/ محمد الخطيب ٢/ ٧٠٦.

(٣) علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي – د/ هادي نهر صـ ١٢٩.

فقد كان سيبويه أول من فطن إلى ذلك حيث عقد لهذا الموضوع بابًا مستقلًا في كتابه سماه (باب الاستقامة من الكلام والإحالة) وفيه قسم الكلام من حيث الصحة النحوية والاستقامة الدلالية إلى خمسة أنواع قال: "هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة: فمنه مستقيم حسنٌ، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتُك أمْسِ، وسآتيك غدًا، وسآتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فقولك: حَمَلتُ الجبلَ، وشربت ماء البحر" ونحوه. وأما المستقيم القبيح فأنْ تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدًا رأيت، وكي زيدًا يأتيك، وأشباه هذا. وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمسٍ". (١) ومن ذلك أيضًا قوله: "وذلك قولك: (مررتُ برجلٍ حِمارٍ)، فهو على وجهٍ محالٌ وعلى وجهٍ حَسَنٌ، فأَمَّا المحُالُ فأَن تَعنَى أنَّ الرجلَ حِمارٌ، وأَمَّا الذي يَحسُن فهو أن تقول: (مررتُ برجلٍ) ثم تُبْدِلَ (الحِمارَ) مَكَانَ (الرجل) فتقولَ: (حِمارٍ)؛ إمَّا أن تكونَ غلِطتَ أو نَسِيتَ فاستَدركتَ، وإمّا أن يَبْدُوَ لك أَن تُضربَ عن مرورك بالرجل وتَجعلَ مكانه مرورَك بالحمار، بعد ما كنتَ أردتَ غيْرَ ذلك". (٢) فسيبويه في هذا التقسيم سبق ما توصل إليه رواد المدرسة التوليدية التحويلية الحديثة وفي مقدمتهم (تشومسكي) الذي أوجد مصطلحي البنية السطحية (Surface Structure) والبنية العميقة (Deep Structurea) تبعًا للاستقامة النحوية والصحة الدلالية، والبنية العميقة وحدها هي التي تمد الجملة بالتفسير الدلالي، وهذان مصطلحان يمثلان ركيزة البحث اللغوي الآن عند التحويليين. فترتيب الجملة عنده يخضع لأغراض المتكلمين.

فالكلام المستقيم الحسن هو ما كان " ظاهره مستقيم اللفظ، والإعراب غير دالّ على كذب قائله، وكذلك كل كلام تكلّم به متكلّم، فأمكن أن يكون على ما قال، ولم يكن في لفظه خلل من جهة اللغة والنحو". (٣) أما المستقيم الكاذب فهو "كلام

---

(١) الكتاب – سيبويه ١ / ٢٥، ٢٦.

(٢) السابق ٤٣٩/١.

(٣) شرح كتاب سيبويه – أبو سعيد السيرافي ١/ ١٨٦.

مستقيم في الظاهر، وقد تبيّن في مثل هذا أن قائله كاذب فيما قاله، فتحكم على كلامه أنه كذب غير مستقيم من حيث كان كذبًا، إلا أنه مستقيم اللفظ... وإنما خصّ "حملت الجبل" و "شربت ماء البحر" بالكذب؛ لأن ظاهرهما يدلّ على كذب قائلهما، قبل التصفّح والبحث، وإلا فكل كلام تكلّم به، وكان مخبره على خلاف ما يوجبه الظاهر فهو كذب، علم أو لم يعلم، كقول القائل: "لقيت زيدا اليوم" و "اشتريت ثوبا" إذا لم يكن الأمر على ما قال، فهو مستقيم كذب". (١) وأما المحال فهو الذي "أحيل عن وجهه المستقيم، الذي به يفهم المعنى إذا تكلّم به ... أو هو الكلام الذي يوجب اجتماع المتضادات". (٢) أما المستقيم القبيح نحو: قد زيدًا رأيت، فهو "المستقيم من طريق النحو وهو ما كان على القصد سالمًا من اللحن، فإذا قال: "قد زيدا رأيت" فهو سالم من اللحن، فكان مستقيما من هذه الجهة، وهو مع ذلك موضوع في غير موضعه فكان قبيحا من هذه الجهة ... وإنما قبح هذا، لأن من حكم "قد" أن يليها الفعل، ولا يفارقها؛ لأنها جعلت مع الفعل بمنزلة الألف واللام مع الاسم، وكذلك "سوف" مع الفعل، فقبح أن يفصل بين "قد" وبين الفعل بالاسم؛ لما ذكرنا من شبه الألف واللام". (٣)

ومن هنا ندرك أن سيبويه قد تعامل بمفاهيم المنهج التوليدي التحويلي ومنها ارتباط البنى السطحية بالبنى العميقة من دون أن يذكر المصطلحات نفسها التي عرفناها في القرن العشرين علي يد تشومسكي وتلاميذه والمتابعين له حول العالم. ويظهر ذلك في العديد من الظواهر اللغوية والنحوية، ومن أمثلة ذلك: تفرقته بين البنيتين العميقة والسطحية ومدى ارتباطهما بالاستقامة أو السلامة النحوية كما سبق، وكذلك دراسة سيبويه لوسائل التحويل: كالحذف، والتقديم، والتأخير، والاعتراض (الفصل)، والاختصار والإيجاز، والاتساع، والزيادة...إلخ. ويذكر سيبويه أنَّ

(١) شرح كتاب سيبويه – أبو سعيد السيرافي ١/ ١٨٦، ١٨٧.

(٢) السابق ١/ ١٨٦.

(٣) السابق نفسه.

العرب "يغيِّرون الأكثر في كلامهم". [١] وهذا التغيير أو التحويل يكون عنده بوسائل شتَّى على النحو الذي سبق ذكره.

فنظرية التوليد والتحويل تتفق ومنهج "سيبويه" في التحليل اللغوي، فلم يكتف "سيبويه" بتصنيف العناصر اللغوية في مستواها السطحي، وإنما عمد إلى البنية العميقة موضحًا أثرها في تكوين الدلالة، فالحركة الإعرابية والحذف والزيادة عناصر تحويلية لها أهمية عنده في نقل التركيب من معنى إلى آخر. وكتاب سيبويه – كما يقول الشاطبي (ت: ٧٩٠ هـ) – "يتعلم منه النظر والتفتيش، والمراد بذلك أن سيبويه وإن تكلم في النحو، فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب، وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ونحو ذلك، بل هو يبين في كل باب ما يليق به حتى إنه احتوى على علمي المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني". [٢]

ولا أدل على اهتمام العرب وإدراكهم لأهمية حسن التأليف في نظم الكلام وربطه بصحة المعنى أو الصحة النحوية والاستقامة الدلالية من قول الآمدي (ت ٣٧٠ هـ): "وينبغي أن تعلم أن سوء التأليف وردئ اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه حتى يحتاج مستمعه إلى طول تأمل، وهذا مذهب أبي تمام في عظم شعره، وحسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاءً وحسنًا ورونقًا حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن، وزيادةً لم تعهد، وذلك مذهب البحتري، ولذلك قال الناس: لشعره ديباجة، ولم يقولوا ذلك في شعر أبي تمام، وإذا جاء لطيف المعاني في غير بلاغة ولا سبك جيدٍ ولا لفظ حسن كان ذلك مثل الطراز الجيد على الثوب الخلق، أو نفث العبير على خد الجارية القبيحة الوجه". [٣] كذا يظهر هذا بوضوح في كلام أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) عن أن أجناس الكلام المنظوم وأن جميعها يحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب، وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحًا وشرحًا، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف

(١) كتاب سيبويه ٢ / ٢٠٨.

(٢) الموافقات ٥/٥٤.

(٣) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري – أبو القاسم الآمدي ١/ ٤٢٥.

والتركيب شعبة من التعمية. [١] وكذا قول الإمام يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩ هـ): "يجب مراعاة التأليف بين الألفاظ المفردة والجمل المركبة، حتى تكون أجزاء الكلام متلائمة، آخذاً بعضها بأعناق بعض، وعند ذلك يقوى الارتباط، ويصفو جوهر نظام التأليف، ويصير حاله بمنزلة البناء المحكم المرصوص المتلائم الأجزاء، أو كالعقد من الدر فُصلت أسماطه بالجواهر واللآلئ، فخلص على أتم تأليف وأرشق نظام". [٢]

فعلماؤنا العرب الأوائل – وفي مقدمتهم سيبويه – قد أدركوا الأسس والأصول التي قام عليها النحو العربي كالعامل، والحد، والاستقامة النحوية، ومفاهيم القياس، والسماع، والعلة، والأصل، والفرع، وغيرها من المفاهيم التي شكلت في مجموعها النحو العربي، وهي مفاهيم تبين في وضوح لا يقبل الشك أن للنحو العربي عند سيبويه وشيوخه وتلاميذه منطقاً، ولكنه منطق رياضي خالص. وهذا يقودنا إلى مدى ظهور الجانب العقلي في البدايات الأولى للنحو العربي، فقد احتل الجانب العقلي مكانة متميزة في الدراسات اللغوية التراثية استنادًا إلى وجود مفاهيم تعتمد في التحليل على العقل وصولا إلى القاعدة اللغوية، إلى جانب الاهتمام بالواقع اللغوي المحسوس أي الجانب النقلي المسموع. وقد صار هذا الجانب – الجانب العقلي – ضروريًّا في البحث اللغوي الحديث لا سيما عند التحويليين؛ لأنه أداة أصلية من أدوات بناء العلم بدونه يتحول النحو إلى مجرد جمع وتصنيف، وهذا ما أكده عبده الراجحي في قوله: "إن وجود الأثر المنطقي في النحو العربي دليل على مكانة الجانب "العقلي"، ودليل على وجود الجانب العقلي في هذا النحو وهو جانب كان موجودًا مع الجانب النقلي في المناخ العام الذي كان يسود البيئة الإسلامية وقت نشأن هذه العلوم وازدهارها، وإن وجود الجانب العقلي في النحو

(١) ينظر: الصناعتين (الكتابة والشعر) صـ١٦١، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء ٢/٢٨٠.

(٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – يحيى بن حمزة العلوي صـ ٣١١، والتبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن– كمال الدين بن الزملكاني صـ٨٩.

وبخاصة في مظهره المنطقي كان عنصرًا أساسيًا من عناصر النقد الذي وجهه الوصفيون إلى النحو التقليدي، ومن ثم وجهه المحدثون إلى النحو العربي". (١)

ولا أدل على وجود النحو التوليدي والتحويلي عند النحاة العرب القدامى وإن لم يأخذ شكل النظرية من أن الجملة العربية رغم أهمية الرتب المحفوظة فيها إلا أن ذلك لا يمثل حتمية يلتزم بها المنشئ سواء أكان شاعرًا أم ناثرًا، بل العدول عن هذه الرتب يمثل نوعًا من الخروج عن اللغة النفعية إلى اللغة الإبداعية، فلم تكن العربية يومًا لغة محصورة في قواعد جافة تمنعها من التعبير بدقة، بل إن لها لينًا ومرونة وقدرة هائلة على التنوع في تركيب جملها، فهي تتميز عن غيرها من اللغات بمجموعة من الخصائص والسمات التركيبية تتيح للمبدع أنماطًا تعبيرية متنوعة تفصح عن غرضه بدقة متناهية في صورة تعبيرية متميزة حسب غرضه ووفقًا لمقتضيات المقام أو الموقف وهو ما يعرف في البلاغة العربية بمطابقة المقال لمقتضى المقام أو الحال، وهذه الصورة التعبيرية أو التركيبية للجملة العربية يفهمها المتلقي المتمرس بطرائق العرب في كلامهم، وهو ما يطلق عليه التشكيل الفرعي للجملة العربية، وهذا التشكيل ليس بعيدًا عن الجملة الأصولية أو القواعد الكلية للنحو العربي، وإنما هو متفرع عنها وخصيصة من خواصها. فهي لغة ناضجة ومرنة وينطبق هذا على نحوها ومفرداتها وتراكيبها وسماتها الدلالية، فلا يكون المتكلم بالعربية ملزمًا بترتيب عقيم للكلمات كالمتكلم بالإنكليزية فإنه يتبع ترتيبًا معينًا: (فاعل – فعل – مفعول به)، فإذا أردت أن تقول: (أكل زيد لحمًا) يجب أن يكون الترتيب: (زيد أكل لحمًا)، ولا يجوز أن تقول: (أكل زيد لحمًا) ولا (لحمًا أكل زيد) ولا (أكل لحمًا زيد)، بينما يجوز في اللغة العربية أن تقول كل هذه الصيغ، وذلك لوجود علامات الإعراب التي تلحق أواخر الكلمات، وتميز الفعل من الفاعل والمفعول به، ونظام الإعراب هذا يدل على المرونة التي تتميز بها اللغة العربية. يقول د/ محمد أبو موسى: "عبقرية اللغة تكمن في مرونتها، وطواعيتها وإفادتها دقيق المعاني، بوجوه وفنون الصياغة، فتصف بهيئة الكلمة وتشير

(١) النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج صـ ١٠٤، ١٠٥.

بخصوصية التركيب". [١] وهذا ما أكده المستشرقون أنفسهم يقول وليم ورك: "إن للعربية ليناً ومرونة يمكنانها من التكيف وفقًا لمقتضيات العصر". [٢] وقال جورج سارتون: "وهب الله اللغة العربية مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحيَ أحسن تدوين ... بجميع دقائق معانيه ولغاته، وأن تعبر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها متانة". [٣] وكذا وصف (فيكتور بيرار) اللغة العربية في القرن الرابع الهجري "بأنها أغنى، وأبسط، وأقوى، وأرق، وأمتن وأكثر اللهجات الإنسانية مرونة وروعة". [٤]

وللجملة العربية – أيضًا – ما يمكن أن يسمى بالتشكيل الفرعي للجملة العربية، وفيه يكون العدول عن الأصل في البناء التركيبي للجملة العربية إلى تركيب فرعي لتحقيق قيمة دلالية أو تعبيرية وجمالية لا تتم من دونه، وهناك أنواع عدة من التغيير في نظم الألفاظ تدخل في صياغة "النظم" مع الالتزام بقواعد النحو الكلية. وقد أشار أحد الباحثين إلى هذا التشكيل الفرعي للجملة العربية وعناصره التي جعلها التحويليون من مبادئ نظريتهم الحديثة، وقد أطلق على هذا التشكيل الفرعي مصطلح العدول فقال: يمكن للعدول عن أصل وضع الجملة أن تكون بالعدول عن أي واحدة من هذه الأصول بواسطة الحذف، أو الإضمار، أو الفصل، أو تشويش الرتبة بالتقديم والتأخير، أو التوسع في الإعراب، وهذا العدول إما أن يكون مطردًا أو غير مطرد. فإن كان غير مطرد فالنحاة يسمونه شاذًا،

---

(١) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني– د/محمد محمد أبو موسى صـ٣٧.

(٢) اللغة العربية ومكانتها بين اللغات – د/ فرحان السليم ــ مقالة على النت في مكتبة صيد الفوائد.

(٣) سعة العربية وضيق شانئيها – د/ محمد حسان الطيان (شبكة الألوكة) تاريخ الإضافة: ٢٠٠٧/٦/٢٥ ميلادي – ١٤٢٨/٦/١٠ هجري – نقلا عن: من قضايا اللغة العربية المعاصرة صـ ٢٧٤.

(٤) قال غير العرب عن العربية – مقال في النت (أرشيف منتدى الفصيح) http://www.alfaseeh.com .

أو ضرورة، أو قليلا، أو نادرًا، أو خطأ، وكل ذلك يمكن تفسيره بفكرة الترخص عند أمن اللبس، وذلك عندما ينسب إلى العربي الفصيح ذي السليقة. أما إذا كان العدول مطردًا فإنه عندئذ يخضع لعدة اعتبارات هي: الفائدة أو أمن اللبس فلا بد أن تتحقق الفائدة على رغم العدول، والخضوع لقواعد معينة يتم هذا العدول في ضوئها ويطرد في ضوئها، والإطار العام لصناعة النحو كما يبدو من خلال قواعد التوجيه.(١)

وكذا يعد الشيخ عبد القاهر الجرجاني من أوائل العلماء الذين اهتموا بالعناصر التحويلية في النحو العربي وكشفوا عن أسرارها الجمالية في لغة العرب عامة ولغة القرآن الكريم خاصة، إذ كانت عنده وسيلة من وسائل بيان الإعجاز القرآني في تراكيبه التي تحدى بها العرب رغم أنها من جنس كلامهم وطرائقهم في تعبيراتهم. فالنظم عنده ليست له قوانين ثابتة، بل الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية، وليست المزية واجبة لهذه الفروق في أنفسها، ولكن تعرض بحسب المعاني والأغراض، فإذا راق وجه في موضع لا يلزم أن يروق في موضع آخر، وقد تخفي هذه الوجوه حتى يعرض للعالم السهو فيها، وما دامت كذلك خفية غامضة فإنك لا تستطيع أن تحدث علمًا للسامع بها حتى تكون فيه طبيعة قابلة لإدراكها، ويكون له ذوق وقريحة. (٢)

وإذا كان لكل لغة من لغات البشر نسق معين في ترتيب الكلام، يلتزمه المتكلم في كلامه ويرتبط بالتسلسل المنطقي والتدرج الذهني، فمن المعروف في اللغة العربية أن يأتي المبتدأ وبعده الخبر، والفعل وبعده الفاعل، وأن يتأخر المفعول عن الفاعل، وهذا النسق المنظم يعتمد على المنطق السليم وحسن الإدراك، ولكن ما نفكر فيه أحيانًا لا يتم بهذا الترتيب الطبيعي، بل يحدث فيه تقديم وتأخير يرتبطان بما في أذهاننا من اهتمامات، وما في إدراكنا من ميل إلى التعبير عن إحساس نريد

(١) ينظر: ظاهرة العدول في البلاغة العربية مقاربة أسلوبية صـ ٢٨، ٢٩.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز صـ ٢٢٠، وقضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية إلى عهد السكاكي (ت ٦٢٦هـ) – د/ علي محمد حسن العماري صـ ٣٨١.

نقله إلى الآخرين بصورة مقنعة مؤثرة. [١] فترتيب الجملة يخضع لأغراض المتكلمين، فليس تأليف الجملة – كما يرى فخر الدين قباوة – جمعًا آليًا للمفردات، إنما هو تشكيل تعبير متفاعل، يؤثر بعضه في بعض، ويتضح بين عناصره التجاوب والتعاطف حتى يكون وحدة حيوية متكاملة الدلالة. والقول بالرتبة يدفعنا إلى توقع الترابط بين العناصر المكونة للجملة، بما يضمن لها تلازمًا على هذه الحال، فليس بمقدور أي تركيب أن يعبر عن الأفكار الذهنية المقصودة بدون التزام دقيق لترتيب منظم، يعينه على أداء المهمة بدقة، ولا سبيل إلى تحقق ذلك من مراعاة الأحكام التي تحفظ لكل كلمة رتبتها في الجملة.[٢] فالنظام اللغوي للعربية يحافظ على رتبه الخاصة بالنسبة لأجزاء الكلام طبقًا لأصل الرتبة في اللغة العربية التي تقوم على أساس أن يتقدم الفعل على فاعله ومفعوله، والمبتدأ على خبره، ولا تتغير مواقعها إلا بموجب قواعد خاصة يسمح بها النظام اللغوي لتغير الوظيفة النحوية كقواعد التقديم والتأخير الذي يفرضه المقام، وكل تغير على مستوى الترتيب يترتب عليه حتمًا تغير في المعنى، فينتقل من مستوى إلى آخر. وتغيير نسق الكلام تقديمًا وتأخيرًا يرتبط بتغيير إدراكنا للأمور، وبما يكون في أنفسنا من رغبات وتبيين قدرة أصحاب البلاغة والبيان حين يستخدمون هذه الغاية المعنوية للتقديم والتأخير في تحقيق هدف آخر وهو روعة موسيقى العبارة، واكتمال جمالها الفني، ومراعاة التناسق بين العبارات جميعًا.[٣] فالكلمة يمكن لها أن تتحرك داخل السياق اللغوي مع احتفاظها برتبتها، فالمفعول به يتقدم على الفاعل في الجملة الفعلية ويظل مفعولًا به، والجملة العربية رغم أهمية الرتب المحفوظة فيها إلا أن ذلك لا يمثل حتمية يلتزم بها المنشئ سواء أكان شاعرًا أم ناثرًا، بل العدول عن هذه الرتب يمثل نوعًا من الخروج عن اللغة النفعية إلى اللغة الإبداعية، واللغة

(١) خصائص لغة ابن القيم الجوزية من خلال كتابه مفتاح السعادة – نصيرة زيد المال صـ١٣٧.

(٢) ظاهرة التلازم التركيبي (دراسة في منهجية التفكير النحوي) – د/ جودة مبروك محمد صـ ١١٣، ١١٤.

(٣) خصائص لغة ابن القيم الجوزية من خلال كتابه مفتاح السعادة صـ ١٣٧.

النفعية إذا دخلت عالم الأدب اكتسبت خاصية جديدة تفرضها عليها طبيعة الأدب، إذ لم يعد المراد إيصال المعنى، وإنما الإيصال والإمتاع معًا بحيث تصبح اللغة وسيلة من وسائل الجمال... ويعد التقديم والتأخير من أهم الظواهر اللغوية التي أكسبت اللغة مرونتها وطواعيتها، فهو يسمح للمتكلم أن يتحرك بحرية متخطيًا الرتب المحفوظة، فيختار من التراكيب ما يمنح موقفه الفكري والوجداني خصوصيته وتفرده. (١) فللتقديم والتأخير في النظرية التحويلية التوليدية أثره في المعنى الدلالي للجملة إذ ينقل الجملة من معناها الأصل. فهو لا يرد في النظم والتأليف اعتباطًا، إنما المتكلم يقدم ويؤخر ليظهر معنى في نفسه لا يمكن أن يظهر إذا جاء بالكلام على أصله دون تقديم أو تأخير. وكان سيبويه من أوائل العلماء الذين لفتوا الأنظار إلى معنى التقديم والتأخير وسره البلاغي حيث قال في (باب الفاعل الذي يَتعداه فعلُه إلى مفعول): "وذلك قولك ضَرَبَ عبدُ الله زيدًا، فعبدُ الله ارتفع ههنا كما ارتفع في ذَهبَ، وشغَلْت ضربَ به كما شغلتَ به ذهَب، وانتصب زيدٌ لأنه مفعول تعدّى إليه فعلُ الفاعل، فإن قدمتَ المفعولَ وأخَّرتَ الفاعل جرى اللفظُ كما جرى في الأوّل وذلك قولك: ضَرَبَ زيدًا عبدُ الله؛ لأنّك إنَّما أردت به مُؤخّرا ما أردت به مقدَّمًا ولم تُرد أن تَشغلَ الفعل بأوَّلَ منه وإنْ كان مؤخرًا في اللفظ فَمن ثمَّ كان حدّ اللفظ أن يكون فيه مقدَّما وهو عربيٌّ جيِّد كثير كأنّهم إنَّما يقدّمون الذي بيانه أهمُّ لهم وهُمْ ببيانه أَعْنَى وإن كانا جميعًا يُهمّانِهم ويَعْنِيانهم". (٢) أما إذا وضع التقديم في غير موضعه فإنه يؤدي إلى قبح النظم وإن وافق قواعد النحو وهو ما يبدو من قوله: "ويحتمِلون قُبحَ الكلام حتَّى يضعوه في غير موضعه لأنه مستقيم ليس فيه نقصٌ فمن ذلك قوله – (المرار الفقعسي) –:

صَددْتِ فأطولتِ الصُّدودَ وقلّما وِصالٌ عل طُولِ الصُّدود يَدومُ

(١) الأسرار البلاغية للتقديم والتأخير في سورة البقرة (دراسة تطبيقية – خالد بن محمد بن إبراهيم العثيم صـ ٣٤: ٤٤ بتصرف.

(٢) كتاب سيبويه ١/ ٣٤.

وإنما الكلام وقلَّ ما يَدوم وصالٌ". (١)

كذا كان الشيخ عبد القاهر من أبرز العلماء الذين اهتموا بهذه الظاهرة (التقديم والتأخير) كأحد عناصر التحويل والوجوه التي يأتي عليها الكلام حيث قد عقد لهذه الظاهرة اللغوية فصلًا في التقديم والتأخير بيَّن فيه الفروق اللغوية والمعنوية بين حالات الاستعمال فقال فيه: "هو باب كثير الفوائد جَمُّ المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية. لا يزال يفتَرُّ لك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة. ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدِّم فيه شيء وحُوِّل اللفظ عن مكانٍ إلى مكان... واعلم أنَّا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئًا يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام. قال صاحب "الكتاب "وهو يذكر الفاعل والمفعول: "كأنَّهم يقدمون الذي بيانُه أهمُّ لهم وهم بشأنه أعْنَى وإن كانا جميعًا يُهمَّانِهم ويَعْنيانهم ". (٢) وكذا عقد ابن جني – رحمه الله – لهذه الظاهرة فصلا مستقلا في (باب في شجاعة العربية) قال فيه: "فصل في التقديم والتأخير: وذلك على ضربين: أحدهما ما يقبله القياس، والآخر ما يسهله الاضطرار. الأول: كتقديم المفعول على الفاعل تارةً وعلى الفعل الناصبه أخرى، كضرب "زيدًا عمرو"، وزيدًا ضرب عمرو، وكذلك الظرف نحو: قام عندك زيد، وعندك قام زيد، وسار يوم الجمعة جعفر، ويوم الجمعة سار جعفر. وكذلك الحال نحو: جاء ضاحكًا زيد، وضاحكًا جاء زيد. وكذلك الاستثناء نحو: ما قام إلا زيدًا أحد ...". (٣)

ولو نظرنا في أجزاء الجملة وتأملنا الجزء الذي قدم فيها على رأي سيبويه وعبد القاهر لرأيناه أهم أجزائها، ولم يقدم إلا لكونه الأهم، وموضع عناية الناس وانشغالهم، فالعناية والاهتمام أصل في كل تقديم. إلا أنه ينبغي أن يمتد تأملنا على أبعد من هذا، فنعرف سبب العناية، ونقف على دواعي الأهمية، وقد حذر الجرجاني من أن نقف عند العناية والاهتمام، وعدها سببًا للتقديم دون أن ننقب عن دواعي

(١) السابق ١/ ٣١.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز صـ ٩٧.

(٣) ينظر: الخصائص ٢/ ٣٨٤.

الاهتمام، ونفتش عن أسباب العناية. يقول عبد القاهر: "وقد وقع في ظنونِ النـــاسِ أنه يكفي أن يقال: إنه قُدِّم للعناية ولأن ذكره أهمُّ من غير أن يذكر من أين كانـــت تلك العناية؟ وبم كان أهمَّ؟ ولتخيُّلهم ذلك قد صغر أمر التقديمِ والتأخيرِ في نفوسهم وهوَّنوا الخطب فيه. حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيـــه ضـــربًا مـــن التكلف. ولم تر ظنًا أَزرى على صاحبه من هذا وشبهِهِ". [١] فعبد القاهر يرى أنه لا بد من ربط هذه الأنماط بالأغراض والأحوال التي تلزمها دلالة الكلمات والسياقات الكلامية التي ترد فيها، ومراعاة العوامل النفسية وأحوال المتكلم والمتلقي وهو مـــا يقابل البنية العميقة عند التحويليين، ودلل على صحة ذلك ببيان الفـــروق الدلاليـــة الناتجة عن التقديم والتأخير في بعض التراكيب القرآنية مظهرًا روعة التركيب في كل منها وأنه لا يصح في هذا المقام غيره. [٢] من ذلك قوله: "ومن أبينِ شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة فإنَّ موضع الكلام على أنك إذا قلت: أفعلتَ. فبدأتَ بالفعـــل كان الشكُّ في الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده. وإذا قلـــت: أأنتَ فعلتَ. فبدأتَ بالاسمِ كان الشكُّ في الفاعل مَن هو وكان التردُّدُ فيه.... فهـــذا من الفرق لا يدفعه دافع ولا يشكُّ فيه شاكٌّ ولا يخفى فساد أحـــدهما فـــي موضـــع الآخر. [٣] ومن ذلك تقديم المفعول الثاني على المفعول الأول إذا كان ذاك مفضـــيًا لمعنى لا يتحقق من دون هذا التقديم، بل يكون معنى آخر غير مقصود من التعبير يتضح ذلك من قوله: "إنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل في ظاهر الحـــالِ غير الوجه الذي جاء عليه وجهًا آخرَ ثمَّ رأيت النفس تنبو عن ذلكَ الوجه الآخـــرِ ورأيت للذي جاء عليه حُسْنًا وقبولًا يَعْدَمهُما إذا أنت تركته إلى الثاني. ومثال ذلـــك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ [٤] ليس بخاف أن لتقديمِ الشركاء حُسْـــنًا وروعةً ومأخذًا من القلوبِ أنت لا تجد شيئًا منه إن أنت أخَّرت فقلت: وجَعَلوا الجنَّ

(١) الخصائص صـــ ٨٩

(٢) السابق صـــ ٩٩: ١٠٠.

(٣) السابق صـــــ ٩٩، ١٠٠ .

(٤) سورة الأنعام من الآية (١٠٠) .

شركاءَ لله ... والسبب في أن كان ذلك كذلك هو أن للتقديم فائدةً شريفةً، ومعنى جليلًا لا سبيل إليه مع التأخيرِ. بيانه أنّا وإنْ كنّا نرى جملةَ المعنى ومحصولَه أنَّهم جعلوا الجنَّ شركاءَ وعبدوهم مع الله تعالى وكان هذا المعنى يحصل مع التأخيرِ حصوله مع التقديمِ، فإنَّ تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ويفيد معه معنى آخر وهو أنه ما كان ينبغي أن يكونَ لله شريكٌ لا مِنَ الجنِ ولا غيرِ الجن. وإذا أخِّر فقيل: جَعَلوا الجنَّ شركاءَ لله، لم يُفِدْ ذلك ولم يكن فيه شيء أكثر من الإخبارِ عنهم بأنهم عبدُوا الجنَّ مع الله تعالى. فأما إنكار أن يُعْبَد مَعَ الله غيرُه وأنْ يكونَ له شريكٌ مِنَ الجنِّ وغيرِ الجنِّ فلا يكون في اللفظِ مع تأخيرِ الشركاء دليل عليه ... فانظُرِ الآنَ إلى شَرَفِ ما حصلَ من المعنى بأن قدِّم الشركاءُ، واعتبرْه فإنه يُنبِّهك لكثيرٍ من الأمورِ ويدلك على عِظَمِ شأنِ النظمِ وتعلم به كيف يكون الإيجاز بهِ وما صورَته وكيف يُزادُ في المعنى من غيرِ أن يُزادَ في اللفظ". (١)

فالجرجاني في مواطن التقديم والتأخير قد اشترط ضرورة أن يكون المتكلم واعيًا ومدركًا لدلالات التراكيب، وما تطلبه الصياغة ويقتضيه النظم من مراعاة ترتيب أجزاء الكلام وفق ما يقتضيه المعنى، وأن يكون مع ذلك سليمًا نحويًا وهو ما يعرف باسم التلازم التركيبي وهو المصاحبة بين الوحدات المشكلة والمصممة لبناء الجملة... ويكون منتظمًا بحيث يعكس القاعدة التي تحكم طرائق الأداء الكلامي، في كونه نوعًا من الجبر في وضع التركيب على تلك الصورة، وهو ما يعرف بالقياس في أصول النحو... وبذلك تُبنى على أساسه الجملة وتتشكل وحداتها، وتنظم فيها الرتب الكلامية والموقعية الإعرابية، فتتضح بذلك الفلسفة التي على أساسها وزعت الكلمات حتى يتكون المعنى المستقل بالإفادة، وتبدو الجملة تامة محتفظة بكل عناصرها، وهو ما يعرف بآليات تأليف الجملة. فالتلازم التركيبي نابع من تلك الحكمة التي صنعت المصاحبة بين الألفاظ من حيث الرتب الكلامية والمواقع الإعرابية وطرائق ترتيب الجملة حسب النظام، فيلزم بوجود اللفظة وجود نمط تركيبي خاص، يحدده نظام تأليف الجملة أو ما يعرف بالنظم أو التعليق كما

(١) دلائل الإعجاز صـ ٢٢١، ٢٢٢.

سبق، فيصبح التلازم جزءًا من النظام بكونه مؤثرًا في ترتيب الكلمات وتصميم بناء الجملة، وبذلك فهو معني بالنظر في الجبر في التزام اللفظة بموقعها ورتبتها تقديمًا أو تأخيرًا قياسًا بغيرها من العناصر. وتتحدد قيمة التلازم التركيبي في أنه يسهم في الحكم على التركيب بأنه أصبح يؤدي المضمون المراد، وكذلك يقيس به البلاغيون فصاحة الكلام، فلا بد أن تتعلق معاني الكلمات بعضها ببعض، ويكون بعضها بسبب بعض. (١) ولعل هذا هو ما يقصده عبد القاهر بقوله: "وجملة الأمر أنا لا نوجِب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكّنا نُوجبها لها موصولةً بغيرها، ومعلّقًا معناها بمعنى ما يليها". (٢) فتقديم جزء من الكلام أو تأخيره يكون عملًا مقصودًا يقتضيه غرض بلاغي أو داع فني أو بعد نفسي. وقد نص على ذلك صراحة في قوله: "النظم والترتيب في الكلام كما بَيَّنا عمل يعمله مؤلِّف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظِها. وهو بما يَصْنَعُ في سبيلِ مَنْ يأخذ الأصباغ المختلفة فيتوخَّى فيها ترتيبًا يحدث عنه ضرب من النقشِ والوشْيِ. وإذا كان الأمرُ كذلك فإنا إنْ تعدَّينا بالحكاية الألفاظ إلى النظمِ والترتيبِ أدَّى ذلك إلى المُحال". (٣) ومعنى ذلك أن الفكر – (فكر المتلقي) – لا يتعلق بمعاني الألفاظ في ذاتها، بل بما بين معانيها من العلاقات وهي عند عبد القاهر معاني النحو. ويظهر ذلك أن عبد القاهر كان معنيًا بالمعنى بوصفه الغاية في التركيب، ثم يأتي اللفظ في مرحلة تالية بحيث لا يطغى الرمز "اللفظ" على المرموز "المعني". (٤)

أما إذا كان التقديم والتأخير في ألفاظ الجملة مخلًا بالمعنى بسبب سوء الترتيب؛ لكونه بعيدًا عن معاني النحو وأحكامه من حيث انعدام السلامة اللغوية وعدم صحة تعلق الألفاظ بعضها ببعض في التركيب، فإن ذلك يعد في مجال الهذيان وبعيدًا عن كمال البيان أو النسق والنظم. وهذا ما أكده الشيخ في قوله:

---

(١) ظاهرة التلازم التركيبي صـ ١٠٣: ١٠٤.

(٢) دلائل الإعجاز صـ ٢٩٩.

(٣) السابق صـ ٣٥٩.

(٤) المتلقي عند عبد القاهر – د/ ماجد بن محمد الماجد صـ ١٢٢.

"كيف والألفاظ لا تفيد حتى تُؤلَّف ضربًا خاصًا من التأليف، ويُعْمَد بها إلى وجه دونِ وجه من التركيب والترتيب، فلو أنك عمدت إلى بيت شعرٍ أو فصل نثرٍ فعددت كلماته عَدًّا كيف جاء واتَّفق، وأبطلت نضدَهُ ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد، نحو أن تقول في: (قِفا نَبْكِ من ذِكْرَى حَبيبٍ ومنزل): (منزل قفا ذكرى من نبك حبيب) أخرجته من كمال البيان، إلى مجال الهَذَيان، نعم وأسقطت نسبته من صاحبه، وقطعت الرَّحمِ بينه وبين مُنْشِئه، بل أحَلْت أن يكون له إضافة إلى قائل، ونَسَب يختص بمتكلم، وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذي له كان هذه الكلم بيت شعرٍ أو فصل خطاب، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة، وهذا الحكم – أعني الاختصاص في الترتيب – يقع في الألفاظ مرتَّبًا على المعاني المرتَّبَة في النفس، المنتظمة فيها على قضيّة العقل، ولا يُتّصوَّر في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير، وتخصُّص في ترتيب وتنزيل، وعلى ذلك وُضِعَت المراتب والمنازل في الجمل المركَّبة". [1] ويقول في الدلائل: "إن أردت أن ترى ذلك عِياناً فاعمِد إلى أيِّ كلام شئت وأزِل أجزاءه عن مواضعها وضَعها وضعًا يمتنع معه دخول شيءٍ من معاني النحو فيها فقل في: (قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ...) "من نبك قفا حبيب ذكرى منزل" ثم انظرْ هل يتعلَّق منك فكر بمعنى كلمة منها".[2] فالفكر لا يتعلق بمعنى كلمة من هذه الألفاظ على هذا الترتيب إلا إذا توخينا إمكانيات النحو في تركيب الكلام وهو ما صنعه امرؤ القيس من كون (نبك) جوابًا للأمر، وكون، "من" معدّية إلى "ذكرى"، وكون "ذكرى" مضافة إلى "حبيب" وكون "منزل" معطوفاً على "حبيب" ومحصلة الأمر أنه لا يكون هنالك إبداع في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصيغة، وإن لم يُقدم ما قدم، ولم يُؤخر ما أخر، وبُدئ بالذي ثني به، أو ثنّي بالذي ثلث به، لم تحصل الصورة الأدبية". [3] أفلا ترى أنك لو

(١) أسرار البلاغة في علم البيان – عبد القاهر الجرجاني صـ ٢.

(٢) دلائل الإعجاز صـ ٣٠٣.

(٣) المتلقي عند عبد القاهر صـ ١٢٢.

فرضتَ في قولهِ: (قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبيبٍ ومَنْزِلِ) أن لا يكون "نَبْك" جوابًا للأمْرِ ولا يكون مُعدًّى بِمنْ إلى "ذكرى"، ولا يكونَ "ذكرى" مضافةً إلى "حبيب"، ولا يكونَ "منزل" معطوفًا بالواو على "حبيب" لخرج ما ترى فيه من التقديم والتأخيرِ عن أن يكون نسقًا؛ ذاك لأنَّه إنما يكونُ تقديم الشيءِ على الشيءِ نَسقًا وترتيبًا إذا كان التقديم قد كان لموجبٍ أوجب أن يُقدَّمَ هذا ويؤخَّر ذاك. فأما أن يكون مع عدم الموجب نسقًا فَمحال؛ لأنه لو كان يكون تقديم اللَّفظ على اللفظ من غير أن يكون له موجِبٌ نَسقًا لكان يَنبغي أن يكون تَوالي الألفاظ في النطق على أي وجه كان نسقا. حتى إنك لو قلت: "نبكِ قفا حبيبِ ذكرى من" لم تكن قد أعدمتَه النسق والنظم وإنما أعدمته الوزن فقط.(١) فمثل هذا التركيب يعد جملة غير أصولية ولا ينتمي إلى جمل اللغة العربية؛ وذلك لأن ترتيب عناصرها لا يخضع للترتيب الأساس المعتمد في اللغة العربية... وترتيب العناصر اللغوية هو قاعدة بناء في مستوى البنية العميقة. ونظير ذلك قولك: أبحر الإسكندرية من سعد اليوم إلى باريس. فهي جملة غير مفيدة. وذلك لأن كلمة (الإسكندرية) تقع فاعلا لفعل (أبحر) الذي يحتوي على سمة (+ حركة) كما أن كلمة "سعد "(سعد زغلول) ترد في موقع (أبحر من ــ) ولئن تخضع هذه الجملة للترتيب الأصولي للمؤلفات الكلامية في اللغة العربية (فعل، اسم، حرف جر + اسم، ظرف زمان، ظرف مكان...) إلا أنها جملة غير مقبولة؛ لأنها لا تخضع لقاعدة الملاءمة بين سمات الاسم والفعل. ففعل أبحر يقتضي اسمًا فاعلًا يحتوي على سمة (+ متحرك) والقاعدة هذه موجودة في المستوى المعجمي.(٢) وبذلك يكون عبد القاهر الجرجاني قد سبق علم اللغة الحديث عتد الغرب في إدراكه لظاهرة التقديم والتأخير ودورها في توليد الجمل وتحويلها ومدى صحتها وقبولها يقول مازن الوعر: "العالم اللساني سيمون ديك عام ١٩٧٨م في نظريته المعروفة باللسانيات الوظيفية، ثم العالم اللساني الأمريكي تشومسكي في نظريته المعروفة باللسانيات التوليدية التحويلية إنما يشبهان في مفهومهما للتقديم

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٣٣٨.

(٢) الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة) – د/ ميشال زكريا صـ ٩: ١٠.

والتأخير العالم اللغوي العربي عبد القاهر الجرجاني؛ ذلك لأن أهم عنصر يعنى ويهتم به هو العنصر المقدم على بقية العناصر الأخرى في التراكيب اللغوية". (١) ولعل هذا هو عين ما قصده أبو هلال العسكري حين بين المراد بـ حسن الرصف فقال: "حسن الرصف: أن توضع الألفاظ في مواضعها وتمكن من أماكنها ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام ولا يعمي المعنى، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها وتضاف إلى وفقها. وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها وصرفها عن وجوهها وتغيير صيغتها ومخالفة الاستعمال في نظمها". (٢) فحسن الرصف يوجد في نظام بناء الجملة العربية لا على مستوى السياق المتصل... ويتحقق من خلال أمور يتصل كلها بتأليف عناصر الجملة مثل التضام، والرتبة (وهي إما محفوظة وإما غير محفوظة تسمح بالتقديم والتأخير)، والربط وهو أمران: المرجعية وتشمل إعادة الذكر وإعادة المعنى وعود الضمير والموصول والصفة، والمطابقة في الشخص والنوع والعدد والتعيين أي التعريف أو التنكير والإعراب) ... والمقصود بالتضام ما يشمل أمورا منها: الافتقار (كافتقار الموصول إلى الصلة)، والاختصاص (كأدوات النفي وغيرها)، والوصل، والذكر، والتلازم (ومجاله المركبات: كالمركب الإضافي والعددي والإسنادي والمزجي، والأبواب ذوات العلاقات الخاصة كالتبعية والإضافة ونحوهما)، والمناسبة المعجمية بحيث يكون بين عناصر كل جملة مناسبة من حيث معناها المعجمي، والمناسبة الذهنية وهي التي تحول دون التناقض نحو: أتيتك غدًا، وسآتيك أمس، وسوف أشرب ماء البحر أمس، كذا تكره المناسبة الذهنية تحصيل الحاصل إلا لمؤشر أسلوبي فلا يقال: الأرض أرض، والسماء سماء لعدم الفائدة... وجملة القول: إن المناسبة الذهنية في الكلام أمر ضروري لا تتحقق الاستقامة في الكلام إلا به وهو يتنافى مع التناقض وغيره من عيوب التفكير وذلك هو الجانب الأخير من جوانب التضام الذي هو عنصر من عناصر الرصف النحوي وهو التنافي...". (٣)

---

(١) دراسات لسانية تطبيقية – د/ مازن الوعر صـ ٦٨.

(٢) الصناعتين صـ ١٦١، وصبح الأعشى ٢/ ٢٨٠، ٢٨١.

(٣) اجتهادات لغوية – د / تمام حسان صـ ٤٦ – ٥٠ بتصرف، وصـ ٢٥٦.

فالنظم – إذن – هو الذي يحدد جمال الكلام أو عدمه؛ فالكلام الجيد المتميز هو الذي حسنت نظومه وتراكيبه، والكلام الرديء هو الذي ساءت تراكيبه ونظومه، وليست العبرة بالمفردات اللغوية المجردة، خلافًا لما يقول أصحاب اللفظ في البلاغة العربية. فالمعول عليه بعد اختيار اللفظة التي توسم بالفصاحة وتحققت شروط الفصاحة فيها هو حسن التأليف وجودة التركيب، فلا بد أن يتلاءم اللفظ والمعنى والتركيب حتى يتحلى الكلام بالرونق والطلاوة، فإذا كان المعنى جيدًا والتركيب فاسدًا فسدت لذلك قيمة العمل الأدبي كله وفقد رونقه وحلاوته. ومثال ذلك العقد الثمين الذي أفسد نظمه، فوضعت كل درة مع ما ينافيها ولا يناسبها فصار مختل المنظر، بخلاف عقد غير ثمين وضعت فيه كل حبة مع ما يناسبها فأحسن تنفيذه، فخرج رائقًا في منظره. (١) والجدير بالملاحظة أن اختلاف وضع الكلمة في التركيب يولد معاني نحوية كثيرة، والعربية من أغنى لغات العلم في توليد الجمل عن طريق التقديم والتأخير، أو التعريف والتنكير، أو المطابقة، أو التذكير والتأنيث... إلخ، لكن الأجدر بالملاحظة هنا – أيضًا – هو أن إدراك الفوارق الدقيقة التي يحدثها تغيير مكان كل كلمة في الجملة، وإدراك الوضع المناسب للكلمة بحيث تعطي المعنى المقصود والذي يترتب في الذهن أولًا هو الذي يحقق معنى النظم، وهو أيضًا سر بلاغة المنطوق. وقد أدرك عالمنا الجليل الشيخ عبد القاهر هذا جيدًا في حديثه عن القولُ في النظم وفي تفسيره حيث قال: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يَقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأُصولِه وتعرف مناهجه التي نُهِجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رُسمت لك فلا تُخل بشيءٍ منها. وذلك أنا لا نعلم شيئًا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل بابٍ وفروقه. فينظر في الخبرِ إلى الوجوه التي تراها في قولك: "زيدٌ منطلقٌ" و "زيدٌ ينطلقُ" و "ينطلقُ زيدٌ" و "منطلق زيدٌ" و "زيدٌ المنطلقُ" و "المنطلقُ زيدٌ" و "زيدُ هوَ المنطلقُ" و "زيدٌ هو منطلقٌ". وفي الشرطِ والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إنْ تخرجْ أخرجْ، وإن خرجتَ خرجتُ، وإن تخرجْ

(١) دراسات في البلاغة عند ضياء الدين بن الأثير – د/ عبد الواحد حسن الشيخ صـ ٨٣.

فأنا خارجٌ، وأنا خارجٌ إِن خرجتَ، وأنا إِنْ خرجتَ خارجٌ. وفي الحالِ إِلى الوجوهِ التي تَراها في قولك: جاءني زيدٌ مسرعًا، وجاءني يُسرعُ، وجاءني وهو مُسرعُ، أو هو يُسرع، وجاءني قد أسرعَ، وجاءني وقد أسرع. فيعرف لكلٍ من ذلك موضعَه ويجيء به حيث ينبغي له....". (١) انظر كيف استطاع عبد القاهر أن يولد من الألفاظ المحدودة العدد جملًا كثيرة ومستقيمة في تركيبها من حيث البنية السطحية أو قواعد النحو، فقد استطاع أن يكون من الجملة الخبرية ذات اللفظين ثماني جمل أصولية مفيدة، ومن جملة الشرط خمس جمل، ومن جملة الحال ست جمل مفيدة. وهكذا يتم توليد المعاني النحوية الكثيرة من ألفاظ قليلة، وذلك باختلاف موضع الكلمة في الجملة، وبإدراك المعاني الدقيقة للكلمة في السياق مما يولد المعاني النحوية المختلفة. فاللغة عنده هي مجموعة من العلاقات المتفاعلة والفاعلة والتي تحمل نسيجًا متشعبًا من المشاعر والأحاسيس، ويظهر ذلك ويوضحه النظم الذي هو صياغة الجمل.

كذا قد يتم توليد الجمل عن طريق إضافة أداة من الأدوات أو علامة من العلامات، كأدوات العطف، والتوكيد، حيث تؤدي الأداة إلى إدراك المعاني الدقيقة في السياق مما يولد معاني نحوية مختلفة. ومن ذلك ما نجده عند الإمام عبد القاهر في حديثه عن التوكيد وعلاماته حيث يقول: "واعلم أن مما أغمض الطريقَ إِلى معرفَةِ ما نحن بصددِه أن هاهنا فروقًا خفية تجهلها العامة وكثير من الخاصة ليس أنهم يجهلونها في موضعٍ ويعرفونها في آخر، بل لا يدرون أنها هي ولا يعلمونها في جملة ولا تفصيلٍ. روي عن ابن الأَنباري أنه قال: ركب الكِنْدي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إني لأَجِد في كلامِ العرب حشوًا: فقال له أبو العباس: في أي موضعٍ وجدت ذلك فقال: أجِد العرب يقولون: عبدُ الله قائمٌ. ثم يقولون: إنَّ عبد الله قائمٌ. ثم يقولونَ: إن عبد اللهَ لقائمٌ. فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ فقولهم: (عبدُ الله قائمٌ) إخبار عن قيامه، وقولهم: (إنَّ عبد الله قائمٌ) جواب عن سؤالِ سائلٍ. وقولهم: (إنَّ عبدَ الله لقائمٌ)

(١) دلائل الإعجاز صـ ٧٧.

جواب عن إنكارِ منكرٍ قيامه. فقد تكررت الألفاظ لتكررِ المعاني. قال: فما أَحار المتفلسف جوابًا. وإذا كان الكندي يذهب هذا عليه حتى يركب فيه ركوبَ مستفهِمٍ أو معترِضٍ فما ظنك بالعامة ومن هو في عداد العامة ممن لا يخطر شبه هذا ببالـه. واعلم أن هاهنا دقائق لو أن الكنديّ استقرأ وتصفح وتتبع مواقع "إنَّ" ثم أَلطف النظر وأكثر التدبر لَعلم علم ضرورة أن ليس سواءً دخولها وألا تدخل". (١) فالجملة الواحدة عن طريق التوليد والتحويل صارت ثلاث جمل أصولية مفيدة، لكل جملة منها دلالة مستقلة، ولكل منها مقام تستعمل فيه دون أختيها، وذلك من أسرار العربية وخصائصها.

والمكون الدلالي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمكون الأساس بالبنية العميقة التي تتمثل في ذهن المتكلم والمستمع المثالي، أي هي عبارة عن حقيقة عقلية يعكسها التتابع اللفظي للجملة أي البنية السطحية، ومن هنا نجد أن البنية العميقة ترتبط بالدلالات أي أنها تحدد التفسير الدلالي للجمل، والمقصود بالجمل هنا الجمل الصحيحة نحويًا، أي أن المكون الدلالي هو الذي يميز بين الجمل الصحيحة نحويًا والجمل غير الصحيحة، ويضع أيدينا على السبب في انحراف الجمل غير الصحيحة أو التي يبدو لنا تركيبها السطحي صحيحًا مثال ذلك:

١ــ اشتعلت النار في المنزل ٢ــ اشتعل الثلج في الماء

فالجملة الأولى جملة نحوية صحيحة التركيب (مبنى ومعنى) في حين أن الجملة الثانية صحيحة التركيب، ولكنها غير مقبولة برغم أن البنية العميقة لكل واحدة تتكون منهما من: الجملة (مركب فعلي + مركب اسمي + حرف + مركب اسمي). ويرجع السبب في انحراف الجملة الثانية رغم أنها صحيحة نحويا إلى أن المكونات الدلالية للفعل اشتعل (المركب الفعلي) لا تتركب مع المكونات الدلالية للفاعل (المركب الاسمي) الثلج ... وبذلك يكون المكون الدلالي أساسًا لنظرية تشومسكي. (٢) وهو عين ما تحدث به سيبويه في باب "الاستقامة من الكلام

(١) دلائل الإعجاز صـ ٢٤٢، ٢٤٣.

(٢) نظرية تشومسكي اللغوية – جون ليونز صـ ١٥٩، ١٦٠ بالهامش.

والإحالة"، ومثلها: رأى الحصان الصوت، وسمع الحصان السوط. فكلتاهما صحيح ومستقيم نحويا إلا أنه فاسد دلاليا؛ لأن الصوت بالصاد يسمع ولا يرى، أما السوط بالسين فيرى ولا يسمع. فالأجزاء لا معنى لها دون هذه النظرة العلائقية التي يحكمها النظم وهو عين ما ذكره الشيخ عبد القاهر الجرجاني في قوله: "لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلّق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك". (١) وقد بين علة ذلك وهي عنده ربط النظم أو التركيب بالمعنى حيث قال: "لأنك تقتفي في نظمها – (أي نظم الكلم) – آثار المعاني، وترتّبها على حسب ترتّب المعاني في النفس. فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو «النّظم» الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتّفق. ولذلك كان عندهم نظيرا للنّسج والتأليف والصّياغة والبناء والوشي والتّحبير وما أشبه ذلك، ممّا يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كلّ حيث وضع، علّة تقتضي كونه هناك، وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح. والفائدة في معرفة هذا الفرق: أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل". (٢) وهذا معناه "أن ما في النحو التوليدي والتحويلي من نظام خاص بالقواعد يعد هنا أداة مساعدة تقدم قواعد إضافية خاصة لوصف ما يظهر من جمل ناشزة". (٣)

ومما يبرهن على صحة ذلك وأن اللغة العربية دقيقة المبنى واسعة المعنى، وأنها تراعي البنية السطحية والبنية العميقة أنها بحرف واحد، بل بحركة واحدة يتغير كل شيء نتيجة لهذا التغيير الذي يتبعه اختلاف في تركيب الجملة، فهو وإن كان صحيحًا ومستقيمًا نحويًّا إلا أنه سيكون فاسدًا وفاحشًا دلاليًّا، ونجد لذلك نظائر منها اللحن في قراءة القرآن الكريم، إذ قد يلحن القارئ من دون إدراك أو تأمل

(١) ينظر: دلائل الإعجاز– تح/ هنداوي صـ ٤٥.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز– تح/ هنداوي صـ ٤٢.

(٣) الأسلوبية اللسانية – أولريش بيوشل صـ ١٣٢.

فيتغير تركيب الجملة ويتبعه تغير دلالي فاحش لعدم مقبولية المعنى شرعًا، فكثير من أبنائنا يلحنون في قراءة قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [١] ومعناها أن العلماء بسبب معرفتهم بالله وبشرعه وأحكامه هم أكثر الناس خشية ومحبة وإجلالاً لله. فيقرأ مخطئًا: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ) بناءً على أن رتبة الفاعل في نظم الكلام قبل المفعول به، بل إنها قراءة نسبت إلى الإمام أبي حنيفة – ﷺ – التي جمعها أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعيّ ونقلها عنه أبو القاسم الهذليّ وغيره فإنها لا أصل لها. وهي (إِنَّما يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءَ) برفع الهاء ونصب الهمزة. وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه وتكلف توجيهها. قال ابن الجزريّ: وإن أبا حنيفة لبريء منها". [٢] فيصير معناها فاسدًا فاحشًا، فقد جعل هذا القارئ الله يخشى العلماء عياذًا بالله، وقد تبطل صلاته إن صلاها هكذا. ومن ذلك أيضًا: سمع أعرابيٌ –وكانوا أهل اللغة – قارئاً يقرأ: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [٣] قال: (ورسولِه)، فجر (رسوله) فصارت معطوفة على المشركين وصار الله بريئاً من المشركين، ومن رسوله، ومعاذ الله أن يتبرأ الله من رسوله – ﷺ – والصواب ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ والمعنى أن الله برئ من المشركين ورسوله برئ منهم كذلك. قال ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ): "ألا ترى أنّ القارئ إذا قرأ إن الله بريء من المشركين ورسوله – بالرفع – فقد سلك طريقًا من الصواب واضحًا، وركب منهجًا من الفضل لائحًا، فإن كسر اللام من «رسوله» كان كفرًا بحتًا وجهلا قحّا؟". [٤] ومر أحدهم على قارئ يقرأ قوله تعالى: (وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشرِكِينَ) بضم التاء. و(لا تُنكح) يعني: لا تعط ابنتك

(١) سورة فاطر من الآية (٢٨).
(٢) محاسن التأويل – محمد جمال الدين القاسمي ١/ ١٩٢.
(٣) سورة التوبة من الآية (٣).
(٤) معجم الأدباء ١/ ١٠.

أو أختك، لا تزوجها لمشرك حتى يسلم، فلا يجوز أن تُجعل مسلمة تحت كافر أو غير مسلم. فمن جهل القارئ قرأ: (ولا تَنكحوا المشركين) بفتح التاء، فقال: والله لن ننكحهم حتى ولو آمنوا، كيف ينكح الذكرُ الذكرَ؟ فانظر إلى شناعة التغير في المعنى الذي يحدث بتغيير ضمة، أو فتحة، أو كسرة ونحو ذلك مما يترتب عليه خلل كبير في فهم المعنى وإيصاله إلى السامع بصورة بعيدة كل البعد عن المعنى المقصود بل منافية له، بل إن الأعرابي حين سمع الإمام يقرأ بذلك – أي بفتح التاء من تنكحوا – قال: "سبحان الله! هذا قبل الإسلام قبيح فكيف بعده! فقيل: له إنه لحن، والقراءة: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ [1] فقال: قبحه الله، لا تجعلوه بعدها إمامًا، فإنه يحل ما حرم الله". [2]

فالصورة اللفظية للجملة تمثل البنية السطحية، أما البنية العميقة فترتبط بإبراز الفروق الدلالية للصور اللفظية المتنوعة من خلال ربط الفعل بفاعله أو الحدث بمن يحدثه. فليس الشأن في البلاغة أن يضم بين الكلمات ويؤلف بينها كيفما اتفق، ولو جاءت سليمة صحيحة على ما يقتضيه علما الصرف والنحو، ولكن شأن البليغ أن يحسن انتقاء ألفاظه ثم ينظم بينها نظمًا يكشف عما في نفسه، وينفذ به في نفس مخاطبه فيبلغ به كنه مراده. وكان الشيخ عبد القاهر من أبرز العلماء الذين اهتموا ببيان الصلات القائمة بين الكلمات التّي تؤلف الجملة والتي تتجلى عند "سوسير" في القيمة اللغوية للعناصر من حيث صلتها ببقية العناصر الأخرى. ونتبين من هذا أن قيمة أي عنصر لا تقوم إلا بعلاقته ببقية العناصر الأخرى وفي سياق محدد، وعن طريق معرفة مظاهر التعليق والتماسك بين العناصر اللغوية وهو ما يتماثل مع فكرة "تشومسكي" التي تشير إلى أنّ الجملة الأصلية لا تخرج عن إطار إسناد شيء إلى آخر.

ولا أدل على أن حسن التأليف وبراعة التركيب وجودة الرصف والسبك تنتج من توخي معاني النحو وإعرابه من أنه إذا حدث في تركيب الجملة خلل نحوي ما

---

(١) سورة البقرة من الآية (٢٢١).

(٢) عيون الأخبار ٢/ ١٧٥.

فإنه بالضرورة يؤدي إلى خلل في المعنى، وساء التأليف بهذا الخلل وهو ما أطلق عليه علماء البلاغة العربية مصطلح (ضعف التأليف تارة، ومصطلح المعاظلة اللغوية تارة ثانية)، وأطلق عليه أصحاب النظرية التوليدية التحويلية حديثًا البنية السطحية والبنية العميقة ودورهما في إنتاج جمل أصولية أو غير أصولية. وهذا ما وضحه الشيخ في قوله: "فلست بواجد شيئًا يرجع صوابه إن كان صوابًا، وخطؤه إن كان خطأً إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنًى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووُضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلامًا قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزيَة وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه. هذه جملة لا تزداد فيها نظرًا إلا ازدَدْتُ لها تَصورًا وازدادت عندك صحة وازددت بها ثقة، وليس من أحد لأن يقول في أمر النظم شيئًا إلا وجدته قد اعترف لك بها أو ببعضها ووافق فيها. درى ذلك أو لم يدر. ويكفيك أَنهم قد كشفوا عن وجه ما أردناه حيث ذكروا فساد النظم فليس من أحدٍ يُخالف في نحو قول الفرزدق:

وما مثلُهُ في النّاسِ إلا مُمَلَّكًا أبُو أمِّهِ حَيٌّ أبوهُ يقاربُهْ

... وفي نظائرِ ذلكَ ممَّا وصفوُه بفسادِ النّظم وعابوُه من جهةِ سوءِ التأليف أنّ الفسادَ والخللَ كانا من أنْ تَعاطَى الشاعرُ ما تَعاطاهُ من هذا الشأنِ على غيرِ الصواب، وصنَع في تقديم أو تأخيرٍ أو حذفٍ وإضمارٍ أو غيرِ ذلك ما ليس له أن يصنَعهُ وما لا يَسوغُ ولا يصحُّ على أُصولِ هذا العلم، وإذا ثبتَ أنَّ سببَ فسادِ النَّظم واختلالَه أنْ لا يُعملَ بقوانينِ هذا الشأنِ ثبتَ أنّ سببَ صِحَّتِهِ أن يُعملَ عليها. ثم إذا ثبت أن مُستنَبطَ صِحته وفساده من هذا العلمِ ثبت أن الحكم كذلك في مزيَّتِ والفضيلة التي تعرض فيه. وإذا ثبت جميع ذلك ثبت أن ليس هو شيئًا غير توخّي معاني هذا العِلم وأحكامه فيما بين الكَلِمِ". (١) فما يعده عبد القاهر وغيره من

(١) دلائل الإعجاز صـ ٧٨، ٧٩ .

البلاغيين بناءً على معاني النحو فسادًا في التأليف وخللًا في النظم ليس إلا صورة من صور التركيب توخاها الشاعر في اللغة. "إنه لم يُرَتِّب الألفاظ في الذكر على موجب ترتيب المعاني في الفكر، فكدَّ وكَدَّر، ومنع السامع أن يفهم الغرض إلا بأن يُقدِّم ويؤخّر، ثم أسرفَ في إبطال النِّظام، وإبعاد المرَام، وصار كمن رمى بأجزاء تتألف منها صورة، ولكن بعد أن يُراجَعَ فيها بابًا من الهندسة، لفرط ما عادى بين أشكالها، وشدّة ما خالف بين أوضاعها". (١) وذلك أن الشاعر قد فصل فصلًا كبيرًا بين البدل وهو (حي) والمبدل منه وهو (مثله)، وفيه تقديم المستثنى وهو (مملكًا) على المستثنى منه وهو (حي) برغم موافقته قوانين النحاة إلا أنه قد زاد التعقيد، كما فصل بين المبتدأ والخبر (أبو أمه، أبوه) بكلمة (حي)، وفصل بين النعت والمنعوت بكلمة (أبوه) حتى صار التعقيد في أبشع صوره". (٢) فالشاعر لم يرتب الألفاظ على حسب ترتيب المعاني في الذهن، ولو فعل ذلك لكان واضحًا، فالنظم – إذن – هو الذي يحدد جمال الكلام أو عدمه؛ والكلام الجيد المتميز هو الذي حسنت نظومه وتراكيبه، والكلام الرديء هو الذي ساءت تراكيبه ونظومه، وليست العبرة بالمفردات اللغوية المجردة خلافًا لما يقول أصحاب اللفظ في البلاغة العربية.

كذلك بين أن الخلل في فهم النظم يؤدي إلى خلل في المعنى وإن كان النظم سليمًا من حيث صحة التركيب، فالمتلقي قد يخطئ في تقدير المعنى نتيجة تغيير إعراب الكلمات، وإن بقيت الألفاظ في مواضعها لم تتغير عن أماكنها. وهذا ما وضحه الشيخ في قوله: "فإن ههنا استدلالًا لطيفًا تكثر بسببه الفائدة، وهو أنه يتصور أن يعمد عامد إلى نظم كلام بعينه فيزيله عن الصورة التي أرادها الناظم، ويفسدها عليه من غير أن يحول منه لفظًا عن موضعه، أو يبدله بغيره أو يغير شيئًا من ظاهر أمره على حال مثال ذلك: أنك إن قدرت في بيت أبي تمام:

لُعابُ الأَفاعي القاتِلاتِ لُعابهُ وأَرْيُ الجَنَى اشْتَارتْه أيْدٍ عَواسِلُ

(١) أسرار البلاغة صـ ١٥.

(٢) دراسات في البلاغة عند ابن الأثير صـ ٥٩.

أنَّ "لعابَ الأفاعي" مبتدأ و "لعابُه" خبرٌ كما يوهمُه الظاهر أفسدتَ عليه كلامَه وأبطلت الصورة التي أرادها فيه وذلك أن الغرض أن يشبِّه مدار قلمه بلعاب الأفاعي على معنى أنه إذا كتب في إقامة السياسات وكذلك الغَرض أن يشبه مداده بأَرْي الجنَي على معنى أنه إذا كتب في العطايا والصلات أوصل به إلى النفوس ما تحلو مذاقته عندها وأَدْخَلَ السرورَ واللذةَ عليها. وهذا المعنى إنما يكونُ إذا كان "لعابُه" مبتدأ و "لعاب الأفاعي" خبرًا. فأما تقديرُك أن يكونَ "لعاب الأفاعي" مبتدأ و "لعابه" خبرًا فيبطلُ ذلك ويمنع منه البتة ويخرج بالكلام إلى ما لا يجوز أن يكونُ مُرادًا في مثل غرضِ أبي تمام وهو أنْ يكون أرادَ أنْ يشبِّه لعابَ الأفاعي بالمدادِ ويشبه كذلك الأرْيَ به".[١] أي أن المعنى فاسد على التأويل الثاني على الرغم من أن الألفاظ لم تنتقل من مواضعها، ولم تتحول عن أماكنها، ولكن الفساد نشأ عن خطأ المتلقي في تقدير المعنى الذي نتج عن تغيير إعراب الكلمات، واعتبار المبتدأ خبرًا، والخبر مبتدأ. ولذا يلزم التوقف عند أحكام النحو ومعانيه، وهذه المعاني عند عبد القاهر ليست الإعراب، إذ إن الإعراب لا دخل له في الفضل والمزية، وليس هو سبب الفصاحة، فالإعراب يتعلق بالصحة والفساد، لا بالفصاحة والفضيلة أو جملة المزايا. [٢]

ومن هنا نستطيع القول: إن صحة المعنى واستقامته أمر مشترك بين المبدع والمتلقي "فالمبدع يحكم العلاقة بين الشكل والصورة وينتجها، والمتلقي يعيد تفكيكها ثم تركيبها، ومن مجموع العلاقات بين الألفاظ في النص الأدبي تتكون الصورة، وفيها تظهر البلاغة أو الجمالية .... إن المبدع يوظف العلاقات النحوية، كعلاقة الإسناد بين المسند إليه والمسند، وعلاقة السببية بين الفعل والمفعول به، والفعل والمفعول لأجله، وبها تتوافر الخاصية في كل علاقة وفق ترتب الكلمات وورودها في التركيب". [٣] وعلى المتلقي أن يكون مدركًا لذلك وفاهمًا لهذه

(١) دلائل الإعجاز صـ ٢٧٩، ٢٨٠.

(٢) المتلقي عند عبد القاهر الجرجاني صـ ١٢٠.

(٣) السابق نفسه.

العلاقات النحوية. وقد ذكرت من قبل أن تركيب الألفاظ يعطي الكلام من القوة والضعف ما تزيد به قيمة الألفاظ الفصيحة ويرتفع به قدرها أو يحط مقدارها عن درجة الفصاحة والحسن إلى رتبة القبح والاستهجان.

ومما يدل على إدراك الشيخ عبد القاهر لمفهوم البنيتين العميقة والسطحية أيضا ما وجدناه في دلائله من الإشارات الواضحة الدالة على ذلك من دون لبس من ذلك قوله: "لا يُتَصوَّر أنْ تَعرِفَ للفظ موضعًا من غير أن تَعْرف معناه، ولا أنْ تَتوخَّى في الألفاظِ من حيثُ هي ألفاظٌ ترتيبًا ونظمًا، أنَّك تَتوخَّى الترتيبَ في المعاني وتُعْمِل الفكْرَ هناك، فإذا تَمَّ لك ذلك أتْبَعْتَها الألفاظَ وقَفَوْتَ بها آثارَها، وأنَّك إذا فرَغْتَ من ترتيبِ المعاني في نفسِك، لم تحتجْ إلى أن تستأنفَ فكْراً في ترتيبِ الألفاظِ، بل تَجدُها تَترتَّب لك بحُكْم أنها خَدَمٌ للمعاني، وتابعةٌ لها، ولاحِقةٌ بها، وأن العِلْم بمواقعِ المعاني في النَّفُس، علمٌ بمواقعِ الألفاظ الدالة عليها في النطق". (١) وقوله: "اللفظ تبع للمعنى في النظْم، وأنَّ الكلمَ تَترتَّب في النُّطق بسببِ تَرتُّبِ معانيها في النَّفس، وأنها لَوْ خَلَتْ من مَعانيها حتى تَتجرَّد أصواتاً وأصداءَ حروفٍ، لما وقعَ في ضميرٍ ولا هَجَس في خاطرٍ، أن يَجب فيها ترتيبٌ ونَظْم، وأن يُجْعَل لها أمكنةٌ ومنازِلُ، وأنْ يجبَ النطقُ بهذه قَبْل النطقِ بتلك". (٢) وهذا كله يستدعي أن تمر الجملة النحوية من حيث إنجازها بمرحلتين هما: المرحلة الأولى: تتجسد في العملية الذهنية التي يقوم بها ذهن المتكلم، حيث توصف هذه المرحلة بأنها "مرحلة تحديد العلاقات بين الأشياء.... فعندما يدرك الفكر أن العلاقة بين الشيئين مثلا علاقة إسناد ينجز بومضة من ومضاته هذا المعنى الذهني الذي يحدد العلاقة بين الشيئين، ويقوم بربط الكلمتين المعبرتين عن هذين الشيئين بطريقة خاصة متعارف عليها بين أبناء اللغة الواحدة". (٣) فالمعاني النحوية في هذه المرحلة لا تزال موجودة في ذهن المتكلم وهو ما يسمى عند المحدثين بالبنية

(١) دلائل الإعجاز – تح/ شاكر صـ ٥٣: ٥٤.

(٢) السابق صـ ٥٦.

(٣) قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم – د/ سناء حميد البياتي صـ ١٦.

العميقة التي تجسد المنطلق الرئيس للمعنى الذي ستبنى عليه الجملة لاحقًا وهو ما يقابل عندهم البنية السطحية. أما المرحلة الثانية فهي مرحلة تحديد الألفاظ المناسبة لما هو متصور في الذهن أي صياغة البنية السطحية في كلمات يتعلق بعضها ببعض تكون معبرة عن المعنى المختزل أو المتصور في الذهن و "فيها يتم اختيار كلمة معينة من بين حشد الكلمات الموجودة في الذهن، فيتم تحديد الكلمة المناسبة للتعبير عن ذلك المعنى الذهني، أي: المعنى النحوي". (١) وبذلك تتألف الجملة وتظهر على السطح فتنشأ (البنية السطحية) التي عناها عبد القاهر الجرجاني بقوله: "أنْ تَعْمدَ إلى اسمٍ فتَجْعلَه فاعلاً لفعلٍ أو مفعولاً، أو تَعْمَدَ إلى اسمَيْن فتَجْعلَ أحدَهما خبراً عن الآخر أو تُتْبعَ الاسمَ اسماً على أن يكونَ الثاني صفة للأول، أو تأكيد له، أو بدلاً منه أو تَجيءَ باسمٍ بَعْد تمامِ كلامكَ على أن يكونَ الثاني صفةً أو حالاً أو تمييزًا أوْ تتوخَّى في كلامٍ هو لإثباتِ معنى، أن يصَير نفْياً أو استفهاماً أو تمنياً، فتُدخِلَ عليه الحروفَ الموضوعةَ لذلك أَوْ تُريد في فعلينِ أن تَجعل أحدَهما شَرْطاً في الآخر، فتجيءَ بهما بعدَ الحرفِ الموضوع لهذا المعنى، أو بَعْد اسمٍ منَ الأسماءِ التي ضَمِنَتْ معنى ذلكَ الحرفِ، وعلى هذا القياس".(٢)

فالنحو عند عبد القاهر – إذن – ليس قواعد شكلية بحتة، وليس مجرد تقدير إعراب، أو بيان صحة الكلام أو خطئه فحسب، وإنما هو وسيلة لإبراز الصور الذهنية والمعاني التي تأتلف داخل السياق. وبذلك يعدُّ عبد القاهر أولَّ عالمٍ أخرج النحو من نطاق شكليته وجفافه، وسما به فوق الخلافات والتأويلات حول البناء والإعراب، إذ أخضع النحو لفكرة (النظم) – (كما وضحنا) – إذ "ليست العمدة في معرفة قواعد النحو وحدها، ولكن فيما تؤدي إليه هذه القواعد والأصول، وقد يكون أحدنا لا يعرف التسميات الدقيقة لموضوعات النحو، ولكنّه يعرف الفروق بينها ويحسّ بمعانيها حين يسمعها، شأنه في ذلك شأن البدوي الذي عاش بعيدًا عن النحو ومصطلحاته، أو قبل أن يعرف علم النحو غير أنّه كان يفهم ما يسمع ويميّز بين

(١) قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم – د/ سناء حميد البياتي صـ ١٦.

(٢) دلائل الإعجاز – تح/ شاكر صـ ٥٥.

أسلوب وآخر ...". [١] فعبد القاهر قد أكد على أثر التركيب النحوي في المعنى وما يترتب على ذلك من بلاغة التعبير، فتعلق بآفاق من النحو الجمالي تتجاوز مجال البحث في الصواب والخطأ الذي طالما شغل النحويين الخلص. [٢] فمن يتأمل تحليلاته الدقيقة للتراكيب والتعابير التي بناها على أسس بلاغية ومعنوية فائقة، يدرك أنه كان ينتصر لمعاني النحو الداخلية والتي تمنح الكلام جودته وميزته، فيكون بذلك صحيحًا لا فاسدًا. يقول أحد الباحثين المحدثين: "بهذه النظرة إلى النحو وعلاقاته وأثرها في بناء الكلام وفضلها في التفاضل بين أجناس التعابير وأنواع الصور حقق النحو العربي علي يدي عبد القاهر الجرجاني مولده الثاني، وكان بذلك الشيخ بحق صاحب نظرية نحوية متميزة عن خصائص النظرية الأولى التي ابتدعها الخليل وسيبويه. والتي أسميتها نظرية النحو الثانية، هذه النظرية التي تضع قوانين النحو بإزاء قوانين البلاغة وتجمع بينهما في أداء لغوي يحقق البلاغة والجمال في التعبير. وهي نظرية أمكن على ضوئها النظر بمنطق لغوي بحت إلى إعجاز القرآن الكريم وتحديه لكل ألوان البيان العرب". [٣]

والنحو بهذا المعنى أصبح سر صناعة العربية، فهو رابط الصيغ الذهنية وهو الذي يساعد اللغة على تخطي الصعاب للوصول إلى عملية الإبداع، لقد أصبح النحو في الكثير من مباحثه يستهدف تحديد علاقة الألفاظ المستقلة بالمعاني ثم يستهدف تبعًا لذلك طبيعة الوحدات الكلية وعلاقاتها التجاورية التي يبدعها النحو أو لنقل إنها هي التي تبدع النحو. فتوخي معاني النحو يقصد به أن الفكر يتعلق بما بين معاني الكلم من العلاقات التي هي معاني النحو. [٤] فهو يتجه بمعاني النحو إلى

---

(١) نظرية النظم عند عبد القاهر مقال في النت.

(٢) بلاغة العطف في القرآن الكريم دراسة أسلوبية – د/ عفت الشرقاوي صـ ١٧.

(٣) نظرية النحو الثاني في مفهوم عبد القاهر الجرجاني – أ/ عمار ربيح – الأثر مجلة الآداب واللغات – جامعة ورقلة/ الجزائر العدد الرابع ٢٠٠٥م.

(٤) عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني المفتن في العربية ونحوها – د/ البدراوي زهران صـ ١٨٩.

مواضعها في نسق الكلام ونظم الأسلوب، لا إلى الصنعة الإعرابية التي تُجَرى بمعزل عن المعنى. (١) ولعل هذا هو عين ما توصل إليه (يان موكاروفسكي Jan Mukarovsy ١٨٩١ – ١٩٧٥) – وهو من أقطاب حلقة براغ اللغوية – حيث أوضح بعض سمات الخطاب الأدبي من خلال العلاقة بين اللغة الشعرية واللغة المعيارية، وصاغ مفهوم اللغة المعيارية المعتادة بأنها اللغة المستخدمة في الكتابة غير الفنية، وهي محكومة بمجموعة من القواعد الصوتية، والصرفية، والنحوية المتواضع عليها، وتتسم بالانضباط، والالتزام، والاستقرار، وتحقق وظيفة أساسية هي التوصيل". (٢)

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني هي أقرب ما تكون إلى الأسس التي قامت عليها النظرية التوليدية التحويلية عند تشومسكي؛ لأن نظرية النظم تبدأ بنظم المعاني النَّحويَّة في النفس، هي نفسها بداية النظرية التوليديَّة التحويليَّة، حيث تقوم النظرية على الكفاية اللغوية، وعلى الأداء الكلامي، والكفاية اللغوية تبدأ بالتصور، ويقصد به تلك المعاني والقواعد الكامنة في نفس المتكلم. وفكرة التركيب العميق في نظرية تشومسكي ما زالت تقوم بدورها المهم في النحو العربي؛ لأن البنية العميقة تقوم على مكونين، هما: المكون التركيبي، والمكون الدلالي، بمعنى أن الجملة تؤول دلاليًا في ذهن المتكلم والسامع، وهي ما تسمى بالنواة، وهذا ما سارت عليه نظرية النظم، نحو (جاء الرجل راكبًا) و(جاء الرجل يركبُ) و(الرجل جاء راكبًا) فهذه الجمل تقوم على الجانب التركيبي ثم الجانب الدلالي معًا، وهذا يؤكد على جوانب عدة أهمها:

١. أن النظريتين تسيران على الجانب العقلي.

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية – د/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) صـ ١٢١.

(٢) انغلاق البنيوية وانفتاحها ص ٧٦٠ – ٧٦١. نقلا عن: اللغة المعيارية واللغة الشعرية يان موكاروفسكي – ترجمة/ ألفت كمال الروبي، القاهرة – مجلة فصول، مجلد (٥) عدد (٤٥) ستة ١٩٨٤ صـ ٤٣.

٢. أن نظرية النظم بدأت بالتركيب ثم الدلالة، وانطلقت منها النظرية التوليدية التحولية، فهي تطور عن نظرية النظم.

٣. أن البنية العميقة مقياسها الكفاية اللغوية، وهي تلك الصورة العقلية في نفس السامع أو المتكلم.

٤. تتحول البنية العميقة إلى بنى سطحية عن طريق قواعد تحويلية متعددة، حيث تقوم على المكون الفونولوجي (الأصوات اللغوية المتتابعة)، وهي عبارة عن تفسير صوتي للجمل، وهي ما ينطقه الإنسان فعلًا، ومقياسها الأداء الكلامي، وتُسمى حينئذٍ غير النواة.

٥. أنه لا بد لهذه البنى السطحية من بنية عميقة.

٦. أن نظرية النظم تعتمد الأسلوب اللغوي الفلسفي المنطقي في تفسير الكلام وشرحه؛ وهذا ما تأثر به تشومسكي في تحليله للجملة الإنجليزية.

٧. أن طريقة التحليل التي اتبعها الجرجاني هي هي التي اعتمدها تشومسكي.

كذا تحدث ابن جني ضمنًا عن اهتمام العرب بمفهوم البنية السطحية والبنية العميقة فقال: "إذا أمكن أن تتأول اللفظة على ظاهرها لم يشع العدول عنه إلى الباطن إلا بدليل، والدليل هنا إنما يؤكد الظاهر لا الباطن؛ فينبغي أن يكون العمل عليه دون غيره". (١) وكذا قوله: "إن العرب كما تُعْنَى بألفاظها فتصلحها وتهذِّبها وتراعيها وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة وبالخُطب أُخرى وبالأسماع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدرًا في نفوسها. فأوّل ذلك عنايتها بألفاظها فإنها لما كانت عنوان معانيها وطريقًا إلى إظهار أغراضها ومراميها أصلحوها ورتبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها؛ ليكون ذلك أوقع لها في السمع وأذهب بها في الدلالة على القصد .... فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها وحَمَوْا حواشيها وهذبوها وصقَلوا غُرُوبها وأرهفوها فلا تَرَيَنَّ أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه

(١) سر صناعة الإعراب – أبو الفتح عثمان بن جني ٢/ ٩٩.

بها وتشريف منها ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتحصينه وتزكيته وتقديسه". [١] وكذا قوله: "فكأن العرب إنما تحلى ألفاظها وتدبجها وتشيها وتزخرفها عناية بالمعاني التي وراءها وتوصلا بها إلى إدراك مطالبها وقد قال رسول الله – ﷺ –: "إن من الشعر لحكمًا وإن من البيان لسحرًا". فإذا كان رسول الله – ﷺ – يعتقد هذا في ألفاظ هؤلاء القوم التي جعلت مصايد وأشراكًا للقلوب وسببًا وسلمًا إلى تحصيل المطلوب عرف بذلك أن الألفاظ خدم للمعاني والمخدوم –لا شك– أشرف من الخادم". [٢] وقوله: "فقد رأيت – بما أوردناه – غلبة المعنى للفظ، وكون اللفظ خادمًا له مشيدًا به وأنه إنما جيء به له ومن أجله". [٣] فالعناية بالتركيب السطحي أو البنية السطحية عنده فرع العناية بالمعنى أو بالبنية العميقة، فالبنية العميقة هي الأصل الذي تنبثق عنه البنية السطحية. كما عقد ابن جني في خصائصه بابًا سماه (باب في إصلاح اللفظ) [٤] بين فيه صحيح الكلام من فساده وعلاقة ذلك بالمعنى أو البنية العميقة كما سماها بذلك المحدثون.

وكذا تحدث ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١ هـ) في كتبه صراحة عن التحويل في النحو العربي وهو من أبرز مظاهر النظرية التوليدية التحويلية الحديثة حيث قال: "وينفرد اسم المفعول عن اسم الفاعل بجواز إضافته إلى ما هو مرفوع به في المعنى، وذلك بعد تحويل الإسناد عنه إلى ضمير راجع للموصوف ونصب الاسم على التشبيه تقول: "الورع محمودةُ مقاصدهُ"، ثم تقول: "الورع محمودُ المقاصدَ" بالنصب ثم تقول: "الورع محمود المقاصدِ" بالجر". [٥] وبهذا قال جميع النحاة. "فجواز إضافته إلى ما هو مرفوع به في المعنى" مسبوق بالنصب، "ذلك بعد تحويل الإسناد عنه إلى ضمير راجع للموصوف" باسم المفعول، ونصب الاسم المرفوع به

---

(١) الخصائص – ابن جني ١/ ٢١٦: ٢١٨ بتصرف.

(٢) السابق ١/ ٢٢١.

(٣) السابق ١/ ٢٣٨.

(٤) السابق ١/ ٣١٣.

(٥) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك – ابن هشام الأنصاري ٣/ ٢٠٨.

"على التشبيه" بالمفعول به، إذ لا يصح إضافة الوصف لمرفوعه؛ لأنه عينه في المعنى، فيلزم إضافة الشيء إلى نفسه، ولا يصح حذفه لعدم الاستغناء عنه، فلم يبق طريق إلى إضافته لمرفوعه إلا بأن يحول الإسناد عنه إلى ضمير يعود إلى صاحب الوصف، ثم ينصب المرفوع المحول عنه الإسناد؛ لأنه بعد تحويل الإسناد عنه أشبه الفضلة لاستغناء الوصف عنه بضمير الموصوف، فينصب انتصابها، ثم يجر بالإضافة فرارًا من قبح إجراء وصف المتعدي لواحد مجرى وصف المتعدي لاثنين، وإلى ذلك يشير قول الناظم:

وقد يضاف ذا إلى اسم مرتفع معنى كمحمود المقاصد الورع

والأصل أنك "تقول: الورع محمودة مقاصده" بالرفع، ثم تحول الإسناد عن المرفوع إلى الضمير المضاف إليه وهو الهاء، فيستتر في "محمود" ويعوض منه "أل" على رأي الكوفيين، فتنصبه و"تقول: الورع محمود المقاصد، بالنصب، ثم" بعد أن تنصب "المقاصد" تجرها و"تقول: الورع محمود المقاصد" بالجر، بعد ثلاثة أعمال، وقد تبين أن هذه الأوجه أصلها الرفع وهو دونها في المعنى، ويتفرع عنه النصب، ويتفرع عن النصب الجر. (١) وقال عن التحويل في الصفة المشبهة: وهي كل صفةٍ صح تحول إسنادها إلى ضمير موصوفها، وتختص بالحال، وبالمعمول السببي المؤَخر، وترَفعه فاعلا أو بدلا أو تنصبه مشبهًا بالمفعول به أو تمييزًا، أو تجره بالإضافة إلا إن كانت بأل وهو عارٍ منها". (٢) وقال عن تحويل الصيغة من فاعل إلى فعيل بقصد المبالغة: "وخبير بَنو لَهب على التَّقْدِيم وَالتَّأْخِير وَتَقْدِيره خَبِير كظهير خلافًا للأخفش والمثال هُوَ مَا حول للْمُبَالَغَة من فَاعل إِلَى فعال أَو فعول أَو مفعال بِكَثْرَة أَو فعيل أَو فعل بقلة".(٣)

---

(١) التصريح بمضمون التوضيح في النحو – الشيخ/ خالد الأزهري ٢/ ٢٤.

(٢) شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب – ابن هشام الأنصاري – تح/ عبد الغني الدقر صـ ٥٠٩.

(٣) شرح قطر الندى وبل الصدى – ابن هشام الأنصاري – تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد صـ ٢٧٠.

كذا كان الشيخ خالد الأزهري (ت ٩٠٥ هـ) مدركًا لعملية التحويل في النحو العربي ومدركًا للجمل الأصولية وغير الأصولية من خلال الربط بين البنيتين السطحية والعميقة إذ يقول في باب الإضافة: "وأما رفع القبح ففي نحو: مررت بالرجل الحسن الوجهِ" بالجر، "فإن في رفع "الوجه" "على الفاعلية" قبح خلو الصفة المشبهة عن ضمير يعود على الموصوف لفظًا كما في المعني، "وفي نصبه" على التثنية بالمفعول به "قبح إجراء وصف" الفعل "القاصر"؛ وهو حسن؛ "مجرى" بضم الميم؛ "وصف "الفعل "المتعدي" في نصبه المفعول به، ففي رفع "الوجه" قبح، وفي نصبه قبح، "وفي الجر تخلص منهما" معًا؛ لأن الصفة لا تضاف لمرفوعها حتى يقدر تحويل إسنادها عنه إلى ضمير موصوفها، فيصير في الصفة ضمير يعود على الموصوف، "ومن ثم امتنع: الحسن وجهِهِ" بالجر "لانتفاء قبح الرفع" على الفاعلية لوجود الضمير المضاف إليه "الوجه" لفظًا، فإنه يعود على الموصوف، "وامتنع "نحو: الحسن وجهٍ" بالجر أيضًا "لانتفاء قبح النصب؛ لأن النكرة تنصب على التمييز" بخلاف المعرفة". (١)

فهذه الشواهد والأمثلة التي جاء بها ابن هشام، والشيخ خالد الأزهري تبين أنهما كانا يتعاملان مع التحولات كإجراء وظيفي في فهم معاني التراكيب ومن ثم تحليلها تحليلا عقليًّا من منطلق فكرة التحولات الدلالية، وربطهما بين البنى السطحية والبنى العميقة ومعرفة ما يستقيم منها وما لا يستقيم أو تفرقتهم بين الجمل الأصولية وغير الأصولية.

كذا أشار ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) إلى بعض عناصر التحويل في اللغة العربية وبين كيفية توليد بعض الجمل وأثر هذا التوليد في المعنى وذلك في الفصل السابع والأربعين فتحدث عن التقديم والتأخير، وعن الإعراب ودوره في إفادة المعنى، وعن التحويل بإضافة الأدوات ودورها في إنتاج العديد من الجمل وفي

(١) التصريح بمضمون التوضيح في النحو 1/ ٦٨٢.

التفريق بين المعاني وأن هذا هو ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد أي القرن الرابع الهجري. (١)

وإذا كان التحويل هو نقل اللفظ من هيئة أصلية له إلى هيئة أخرى بقصد تعديل المعنى أو تغييره، وهذا قد يكون في صيغة الكلمة أو في وظيفتها التركيبية أو في رتبتها أو في حركتها الإعرابية. فإن الإعراب – وقد تميزت به العربية بشهادة الغرب أنفسهم عن بقية اللغات وهو ما أكده (لوي ماسينيون) في قوله: "في حين أن اللغة السريانية نقلت أجروميتها عن اللغة اليونانية نقلًا، استطاعت لغة الضاد أن تشيّد بناءً فخمًا من الإعراب يضع أمام الأبصار مشهدًا فلسفيًّا ذا أصالة وابتكار ....". (٢) – يعد عنصرًا أساسًا في التحويل؛ لأنه مصدر التركيب وبيان العلاقة بين أجزاء الجمل ومدى ارتباط بعضها ببعض، وهو المكون الرئيس للبنية السطحية والحكم عليها بالصحة أو الفساد. فعند أناس من مؤرخي اللغات هو أثر من آثار استخدام الحركة في التعبير عن المعنى، وأن اللغة العربية تفردت بين لغات العالم بهذه الخاصة الفنية مع شيوع أنواع من الإعراب في بعض اللغات الهندية الجرمانية، كاللاتينية وبعض اللغات السامية كالعبرية والحبشية، وبعض اللغات القديمة المهجورة كاللغة المصرية على عهد الفراعنة. إلا أن الإعراب العربي وافٍ مقرر القواعد يعم أقسام الكلام أفعالًا وأسماء وحروفًا، حيثما وقعت بمعانيها من الجمل والعبارات، ولا يزيد الإعراب في اللغات الأخرى على إلحاق طائفة من الأسماء والأفعال بعلامات الجمع والإفراد، أو علامات التذكير والتأنيث، وما زاد على ذلك فهو مقصور على مواضع محدودة، ولا يصاحب كل كلمة ولا كل عبارة كما يصاحب الكلمات العربية حيثما وقعت من عباراتها المفيدة. وهذا الإعراب المفصل في هذه اللغة الشاعرة هو آية السليقة الفنية في التراكيب العربية

(١) ينظر: تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر) ١/ ٧٦٦.

(٢) اللغة العربية وآراء المفكرين الغربيين ـــ الأستاذ / إدريس بن الحسن العلمي ــ مقال في النت

المفيدة، توافرت لها جملًا مفهومة بعد أن توافرت لها حروفًا تجمع مخارج النطق الإنساني على أفصحها وأوفاها، وبعد أن توافرت لها مفردات ترتبط فيها المعاني بضوابط الحركات والأوزان. فليس أوفق للشعر الموزون من العبارات التي تنتظم فيها حركات الإعراب، وتتقابل فيها مقاطع العروض وأبواب الأوزان وعلامات الإعراب. فإن هذه الحركات والعلامات تجري مجرى الأصوات الموسيقية، وتستقر في مواضعها المقدورة على حسب الحركة والسكون في مقاييس النغم والإيقاع، ولها بعد ذلك مزية تجعلها قابلة للتقديم والتأخير في كل وزن من أوزان البحور؛ لأن علامات الإعراب تدل على معناها كيفما كان موقعها من الجملة المنظومة، فلا يصعب على الشاعر أن يتصرف بها دون أن يتغير معناها؛ إذ كان هذا المعنى موقوفًا على حركتها المستقلة الملازمة لها، وليس هو بالموقوف على رص الكلمات كما ترص الجمادات. (١) ف "الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون المستخرج لها، وأنه هو المعيار الذي يتبين نقصان الكلام ورجحانه حتى يعرض عليه". (٢) وقد وضّح هذا الأثر للإعراب في المعنى تفصيلا أبو القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧هـ). (٣)

فالنظرة الفاحصة للمعايير والأسس التي انطلق منها المنهج التحويلي التوليدي الذي جاء به تشومسكي في خمسينيات القرن الماضي تعطينا مؤشرًا واضحًا عن مدى التقارب بين ما نادى به تشومسكي من أفكار ومنطلقات وقضايا لغوية، وبين الأفكار والقضايا اللغوية التي وردت في التراث اللغوي العربي، فهناك قضايا أساسية في النظرية التوليدية التحليلية نجدها في تراثنا اللغوي العربي نجدها في مؤلفات النحاة الأوائل أمثال: الخليل، وسيبويه، وابن جني، والجرجاني، وابن هشام وغيرهم على النحو الذي سبق ذكره. وإن لم يكن لهذه النظرية وجود كنظرية مستقلة إلا أنها موجودة كفكرة لها جذورها عند بعض النحاة، فإنها لا شك موجودة،

(١) اللغة الشاعرة – عباس محمود العقاد صـ ١٧: ١٨.

(٢) دلائل الإعجاز صـ ٤٢.

(٣) ينظر: الإيضاح في علل النحو – أبو القاسم الزجاجي صـ ٦٩.

وإن كان المفهوم يختلف والطرح يتفاوت، لأن الأصل أن تعتمد مثل هذه النظريات بما يتفق مع أصول النحو. فهم لم يُنظِّموا تفكيرهم في نظرية، وإنما كان تفكيرهم عبارة عن آراء متفرقة قد لا يجمعها جامع في أحيان كثيرة. وصحيحٌ أنَّ الغربيين المُحدثين تفوَّقوا في تنظيم الفكر اللغوي في نظريات معينة. ولكن ذلك لم يمنع التشابه والتأثر، بل الاتِّفاق بين آراء سيبويه والجرجاني وغيرهما والدرس اللساني الحديث المتمثل في المدرسة التوليدية التحويلية. ومن هنا نستطيع القول: إن علماءنا العرب القدامى قد عولوا في دراستهم للنحو العربي تعويلًا كبيرًا على المعنى. فالنحو عندهم ليس محصورًا في قواعد جافة لا تعرف المرونة، ولا هو عبارة عن قواعد شكلية يتحقق من خلالها النطق السليم، ولكنه نحو يرتبط بالسلامة أو الاستقامة الخارجية وبالصحة الداخلية. ومن هنا مثل تراثنا نضج الفهم النحوي الراشد الذي يعنى بتمييز التراكيب وكشف خصائصها وتوائمها مع ملابساتها. ولقد لخص أحد الباحثين الجوانب التحويلية في النحو العربي في الأمور الآتية: قضية الأصلية والفرعية ــ وقضية العامل وتمثل البنية العميقة أو الجانب العقلي في اللغة، وقواعد الحذف، وقواعد الزيادة أو الإقحام، وقواعد إعادة الترتيب (التقديم والتأخير). فهذه القضايا تمثل مظاهر من التحويلية في النحو العربي التقليدي ولا سيما قضية العامل، ولكن في حدود دلالتها على البنية العميقة للجملة، ويمكن أن نصل إلى أن معالم التحويلية في النحو العربي ربما كانت أبين وأوضح وذلك في الدراسات اللغوية عند البلاغيين والأصوليين. (١) وقد تحدث ابن جني – رحمه الله – عن هذه العناصر تفصيلا وعقد لها بابًا سماه (باب في شجاعة العربية) قال فيه: "اعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والحمل على المعنى والتحريف". (٢)

(١) النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج صـ ١٤٣: ١٥٨، ومنهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث – د/ علي زوين صـ ٤٧: ٤٨.

(٢) الخصائص ٢/ ٣٦٢.

وبذلك يكون الخليل وسيبويه وعبد القاهر وغيرهم من علمائنا القدامى قد سبقوا الفكر اللغوي الحديث عند الغرب الذين استحدثوا مصطلحات ونظريات ذات أصول عربية موجودة منذ القرن الثاني الهجري عند الخليل وتلميذه وحامل علمه سيبويه وعبد القاهر وغيرهم مثل المنهج التحويلي وهو من المناهج الحديثة المعاصرة في الدراسات اللغوية الغربية الذي أصبح له شأن كبير في أوربا ومدرسة ونظرية وأتباع. وبلغ أثره مجمل الدراسات اللغوية العالمية ومنها الدراسات اللغوية العربية، حيث ابتدأ بعض اللغويين المحدثين من العرب والمعنيين بالعربية جهدًا خاصًا في تطبيق بعض الأسس التحويلية على النحو العربي، وإبراز مفاهيم ذات صفة منهجية تحويلية في الدراسات النحوية القديمة ولا سيما في كتاب سيبويه. ف "الظاهرة إذًا معروفة منذ أمد طويل، ولكن أصحاب النظرية هم أول من حاولوا تقعيدها سعيًا وراء تكوين نظرية تفسر النظام الداخلي لمفردات اللغة بشكل علمي منظم، ودمج هذا النظام في النظام العام لقواعد اللغة الشاملة لجميع جوانبها".(١)

فهناك توافق كبير بين النحو العربي والنحو التوليدي، وذلك بالرغم من الهوة الزمنية الفاصلة بينهما واختلاف الخلفيات المعرفية المتحكمة في كل منهما، واختلاف المنطلقات الفكرية وبيئة النشأة أيضًا. هذا التوافق الذي نلفت الانتباه إليه يثير في الحقيقة دهشة كبيرة بالنظر إلى الشبه الحاصل بين النظريتين، أي النظرية النحوية القديمة والنظرية التوليدية التحويلية، وخاصة فيما يتعلق ببعض التصورات والافتراضات، وتطبيق القاعدة وضبط سياقاتها والشروط الملازمة لتطبيقها. ومن هذه التوافقات: اللجوء في التحليل اللساني إلى الاستعمال، والتعويل على الحدس اللغوي أو ما يطلق عليه السجية اللغويّة عند اللغويين العرب القدامى، وافتراض الصيغة المجردة أو ما يعبر عنه بالأصل في مقابل الصيغة المنجزة، والتحوّل من الصيغة المفترضة إلى الصيغة المنجزة ويتّم هذا وفق تطبيق جملة من القواعد في مجملها هي قواعد إعادة كتابة، وكون هذه القواعد نسقًا نحويًّا تخضع فيه لترتيب

(١) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة – د/ نايف خرما صـ ٢٦٦ بتصرف.

معين بحيث لا يمكن تقديم قاعدة على أخرى، أو الإخلال بهذا الترتيب، ومراعاة هذه القواعد في التطبيق حالات أمن اللّبس فُيمنع تطبيق قاعدة ما إذا كان تطبيقها يؤدي إلى الالتباس سواء كان في المعنى أو الصيغة ومن هذه الحالات عدم تطبيق قاعدة الإدغام على أمثلة من قبيل "جلبَب" أو "اْسَحْنَكَك"؛ لأن في تطبيقها إبطالًا للإلحاق. (١) ولعل الفرق بينهما عند أحد الباحثين "أن النظرية التوليدية التحويلية تنظر إلى الظاهرة اللسانية من ناحية مغايرة تمامًا لنظرية النحو التقليدي العربي، فالنحو في إطار النظرية التوليدية التحويلية ليس إعرابًا وتعليلا للحركة الإعرابية، بل هو الكشف عن القوانين والقواعد التي تحكم اكتساب البشر للغة. هذه القوانين والقواعد التي تفرد بها الإنسان عن غيره من مخلوقات. أي: الكشف عن النحو الكلي وتحديد خصائصه ومميزاته، وكذا تحديد مضمون الأنحاء الخاصة، وطرق تأليفها وبنائها. وعن طريق الكشف عن قوانين وأحكام النحو الكلي والأنحاء الخاصة يستطيع اللسانيون الباحثون في اللسانيات التطبيقية وضع برامج وقواعد لتعليم النحو والتحكم فيه". (٢) وبهذا يكون مصطلح النحو على ما هو شائع في النظرية التوليدية التحويلية مصطلحًا ملتبسًا، إذ يمكن نظريًّا الوصول لا إلى نحو وحيد، وإنما إلى جملة من الأنحاء المختلفة، وليس ثمّة ما يمنع من المقارنة بينها، وذلك بغاية الوصول إلى النحو الأفضل أو الأمثل، وأفضلية هذا النحو أو ذاك لا تعود إلى الكفاية الوصفّية وحدها، بل تعود إلى الكفاية التفسيرية أيضًا، وبهذا المعنى نفهم النحو ولا فرق فيه بين مسائل التركيب أو الإعراب ومسائل الصرف، ولا فصل فيه بين التركيب والدلالة وبين التركيب والمعجم. وانطلاقًا من هذا التصور فإن النحو التوليدي قائم على مكونات ثلاثة، هي المكون التركيبي والصوتي والدلالي. والمكون الرئيسي فيها هو المكون التركيبي – (أي لا تفصل بين المستويات المختلفة في التحليل اللساني) – ويتسم توليد الجمل السليمة في هذا النحو انطلاقًا من المعجم أو من الوحدات المعجمية، وتطبيق القواعد التركيبية بما

(١) بين النحو العربي واللسانيات الحديثة – د/ عبد الحميد عبد الواحد ٢٠١٤صـ ١٧ بتصرف.
(٢) النحو العربي بين التقليد والمناهج اللسانية الحديثة – د/ بلقاسم دفه صـ ٧٣.

فيها الصوتية والصرفّية، وذلك بغاية الوصول في نهاية المطاف إلى التمثيل الصوتي، أي الوصول إلى الجملة باعتبارها كلامًا منجزًا أو متحققًا، وأّما القواعد التوليدية والتحويلية التي يقوم عليها هذا النحو فهي قواعد إعادة كتابة، وتكون هذه القواعد حرة أو مقيدة، أي هي مقيدة بسياقات محددة. وهي تمثل في الحالات صياغات صورية تجعلها أقرب ما يكون إلى المعادلات الرياضية أو الفيزيائية... وفي الأخير نشير إلى أن المدرسة التوليدّية التحويلية ما فتئت تتطور، وتنفي نفسها بنفسها للوصول إلى النموذج الأمثل في دراسة الألسن لا بغرض الوصول إلى الأنحاء الخاصة أي الخاصة بكل لغة، وإنما بغرض الوصول إلى ما يسمى بالنحو الكلي.(١)

أما عن تأثر تشومسكي بعلمائنا العرب القدامى في هذه النظرية فقد كان هذا موضع اختلاف بين العلماء فمنهم من يرى أن تأثيرات النحو العربي كبيرة على نظريته في دراسة اللغة، وأنه قرأ كتاب سيبويه كمرجعٍ له. (٢) وقد صرَّح تشومسكي باطلاعه على علوم العربية ولا سيما النحو، يقول: "وكنت مهتما بالتراث النحوي العربي والعبري".(٣) وقال: "وقبل أن أبدأ بدراسة اللسانيات كنت أشتغل ببعض البحوث المتعلقة باللسانيات السامية، وما زلت أذكر دراستي للأجرومية منذ عدة سنوات خلت – أظن أكثر من ثلاثين عاما – وقد كنت أدرس هذا مع الأستاذ (فرانز رونتال) ... وكنت وقت ذاك طالبًا في المرحلة الجامعية أدرس في جامعة بنسلفانيا، وكنت مهتمًّا بالتراث النحوي العربي والعبري".(٤) ويقول د/ حلمي خليل حول اطلاع تشومسكي على النحو العربي ودراسته: "لن نحتاج إلى الترجيح أو

(١) بين النحو العربي واللسانيات الحديثة صـ ١٤، ١٥ بتصرف.

(٢) فن الترجمة وعلوم العربية – إبراهيم بدوي الجيلاني صـ ١٦٦.

(٣) نظرية تشومسكي اللغوية – جون ليونز صـ ١٣، والمدارس اللسانية المعاصرة – د/ نعمان بوقرة صـ ١٣٠.

(٤) النحو التوليدي التحويلي عند تشومسكي التطورات وعناصر التحويل صـ ٦٩.

الاستنتاج فهو يؤكد ذلك في مقابلة له".[١] ومن هؤلاء ميشال زكريا، ومحمد الخولي، وعلي زوين. ومن المؤيدين لفكرة تأثر تشومسكي بالنحو العربي أيضا نهاد الموسى فهو: "يتجاوز القول بتشابه النحو العربي مع النظرية اللسانية التوليدية إلى النظر في إمكان أخذ تشومسكي عن النحو العربي، وقد عرض أحد الباحثين المحدثين لآرائهم تفصيلا. [٢] فتشومسكي في رأيهم أعاد للعربية بريقها وبهاءها وجمالها وعزّها ورونقها بثوب جميل على أهلها وعلى غير أهلها، وطبقها على اللغة الإنجليزية؛ ومن خلالها تُطبق على لغات العالم أجمع ...". [٣] على حين عارض هذا الرأي باحثون آخرون فيجزمون قطعيًا بعدم تأثر النحو الأوربي بالتراث العربي مثل اللغوي بيدرسون، أو معرفة بالتراث العربي وإنكارًا لتأثيره في النحو الأوربي واللغات الأخرى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مثل: جون ليونز، وفرومكين، وحمزة المزيني، وعبد السلام المسدي. [٤] ومنهم: مازن الوعر، والمتوكل، وتمام حسان، وغيرهم. وقد عرض أحد الباحثين المحدثين لهم تفصيلا.[٥] وما دام أن الدراسات اللغوية العربية – في اعتقادهم – لم تنتقل إلى الغرب، فهي بالتالي لم تصل إلى تشومسكي بالطريقة التي تفترض دائمًا. فالمزيني والمسدي كغيرهما من الأوربيين يتعصبون لكل ما هو غربي، وينكرون فضل العلماء العرب والمسلمين عليهم. والأمر الآخر هو أنهما يجهلان التراث العربي

(١) نظرية تشومسكي اللغوية – جون ليونز صـ ١٣.

(٢) ينظر: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث – د/ نهاد الموسى صـ ٥٤، ٥٥.

(٣) ينظر: تأثير الخليل بن أحمد الفراهيدي والجرجاني في نظرية تشومسكي – د/ جاسم علي جاسم صـ ٦٩: ٨٢.

(٤) ينظر: نظرية التقدير عند النحاة العرب والمسلمين وأثرها في نحاة الغرب المعاصرين تشومسكي مجدد النحو العربي – د/ جاسم علي جاسم، ود/ زيدان علي جاسم صـ ٢ بتصرف.

(٥) تأثير الخليل بن أحمد الفراهيدي والجرجاني في نظرية تشومسكي صـ ٦٩: ٨٢.

القديم أو لم يستقرآه جيدًا. [١] ولعل الرأي السديد هو أن الدراسات اللغوية العربية القديمة انتقلت إلى الغرب عن طريق ترجمة الأعمال اللغوية العربية إلى العبرية واللغات الأوربية في العصر الأندلسي. وأن تشومسكي تأثر – بطريقة غير مباشرة – بالنحاة العرب السابقين. ..... فسلسلة السند التي تدل على أخذ تشومسكي عن العرب هو أن جامعة باريس في القرن الرابع عشر كانت تدرس اللغة العربية رسميًا فيها، وأن المدرسة الفرنسية (الباب العالي) في القرن السابع عشر تأثرت بالأفكار والعلوم العربية والتي تأثر بها تشومسكي كما يصرح بذلك. [٢] ومن أبرز الدلائل على تأثر تشومسكي بالنحو العربي ما يلي:

أولًا: اعتراف تشومسكي نفسه بذلك فقد نوّه في معرض ردّه على استفسارٍ وُجّه إليه في سنة ١٩٨٩م بأن تأثيرات النحو العربي كبيرة على نظريته في دراسة اللغة، وأنه قرأ كتاب سيبويه كمرجعٍ له. [٣] وقد صرَّح تشومسكي باطلاعه على علوم العربية ولا سيما النحو، يقول: "وكنت مهتما بالتراث النحوي العربي والعبري". [٤] وكذا قوله: "إن دراستي المبكرة كانت متعلقة بدراسة النحو العبري في العصور الوسطى، فقد كان والدي متخصصًا في النحو العبري والعربي في القرون الوسطى، وقد درست هذا النحو على يديه وباعتباري طالبًا في الجامعة فقد درست النحو العربي الحديث كما درست النحو العربي في القرون الوسطى كذلك". [٥] وهذا ما أكد ذلك علي زوين. [٦] وهذا إن دل فإنما يدل على أن تشومسكي أحد علماء

---

(١) قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث – د/ مازن الوعر صـ ٣٦٠.

(٢) ينظر: تأثير الخليل في تشومسكي ٦٩ – ٨٢.

(٣) فن الترجمة وعلوم العربية – إبراهيم بدوي الجيلاني صـ ١٦٦.

(٤) نظرية تشومسكي اللغوية – جون ليونز صـ ١٣، والمدارس اللسانية المعاصرة – د/ نعمان بوقرة صـ ١٣٠.

(٥) حول بعض القضايا الجدلية لنظرية القواعد التوليدية والتحويلية، لقاء أجراه د/ مازن الوعر مع تشومسكي صـ ٧٩ – ٨٠.

(٦) ينظر: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث صـ ٤٤.

الغرب الذين اطلعوا على تراثنا اللغوي العربي وعلى مدى معرفتهم وإلمامهم بعلوم العربية وبأنظمتها اللغوية.

ثانيا: اللغة العبرية وتأثيرها في نحو تشومسكي: فتشومسكي ربما لم يتأثر بالنحو العربي تأثرا مباشرا، ولكن تأثره به واضح بطريق غير مباشر ومن هذه الطرق: التراث اللغوي العبري؛ ذلك أن النحو العبري تأثر بالنحو العربي تأثرًا كبيرًا في العصر الأندلسي، وصيغت قواعده على هيئة النحو العربي، فاليهود تأثروا بالنحاة العرب وفتنوا بمناهجهم وكتبوا قواعد لغتهم العبرية بالغربية. مما جعل تسرب أشكال الجملة العربية إلى الأسلوب العبري في القصور الوسطى أمرا سهلا...". (١) أما إثبات هذه الحقيقة فيكمن فيما أكده عالم اللغة الشهير (روبنز) عن علماء اللغة اليهود بقوله: "لقد طور اللغويون اليهود علم اللغة بتأثير من علماء اللغة العرب وهذا بسبب تشابه التراكيب العربية والعبرية لأنهما لغتان ساميتان ... ومن ثم يجب علينا ألا نغفل دور اللغة العبرية في نقل التراث النحوي العربي إلى علم اللغة المعاصر ولا سيما اللغة الإنجليزية، والسبب في ذلك: أن أغلب أئمة علم اللغة في الغرب هم يهود كـ: جاكبسون، وهال، وتشومسكي وغيرهم. ومعرفة تشومسكي لها معرفة تامة؛ فهي الواسطة بين العربية واللغات الأوربية وخاصة الإنكليزية لتأثر تشومسكي بها. (٢)

(١) دروس اللغة العبرية – د/ ربحي كمال صـ ٤.

(٢) ينظر: نظرية التقدير عند النحاة العرب والمسلمين وأثرها في نحاة الغرب المعاصرين تشومسكي مجدد النحو العربي صـ ١٣، ١٤ بتصرف.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على الهادي الأمين المبعوث رحمة للعالمين سيد الأولين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فبنعمة من الله وتوفيقه تم الانتهاء من هذا البحث، وقد توصلت من خلاله إلى عدة نتائج أهمها ما يلي:

١. أن هذه النظرية لها جذور فلسفية عربية قديمة وغربية حديثة تمثلت فيما ذكره أفلاطون وهمبولت وديكارت وكانط والغزالي وغيرهم.

٢. أن الوقوف على التراث اللغوي العربي والبحث عن مكنونه وذخائره، وعلى مظاهر تطور الدراسات اللغوية عبر العصور يعد أمرًا لا بد منه وهو هدف علمي ثمين؛ لأنه يربط الحاضر بالماضي العريق الذي هو أساس عقيدتنا وشريعتنا الغراء التي استمدت أصولها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. فالدراسات اللغوية في تطور مستمر وقد أظهرت الدراسات اللغوية الحديثة خصائص جديدة يمكن الاعتداد بها في التحليل والتعليم وهي مستمدة من الدراسات العربية القديمة على اختلافها وتنوعها.

٣. أن المتتبع لمؤلفات القدماء في اللغة، والنحو، والبلاغة، والأصول، وعلم الاجتماع يجد كمًّا هائلا من الإشارات لهذه النظرية.

٤. أن المعالم البارزة في تاريخ النحو العربي بدءًا من سيبويه ومن جاء بعده من العلماء؛ وفي نظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني تشير إلى وجود فكر لغوي مشابه كثيرًا لما وجد عند الغرب في العصر الحديث وإن لم يأخذ طابع النظرية العلمية أو اللغوية.

٥. أن هناك تشابهًا أو التقاءً واضحًا كل الوضوح بين هذه النظرية عند "سيبويه" ومن بعده من النحاة، وعند "الجرجاني، وابن جني، وأبو هلال العسكري، وابن خلدون، والغزالي وغيرهم"، والنظرية التوليدية لـ "أفرام نعوم تشومسكي"، فالعلماء العرب القدامى كانوا هم أساتذة العالم في اللغة والنحو والعلوم وغيرها وقد

سبقوا تشومسكي فيها وإن لم ينظِّروا لها؛ وإن أنكر فضلهم أو تجاهل فضلهم المتعصبون من علماء الغرب ومن تأثر بهم من المستغربين من علمائنا المحدثين. ولا يمكننا الزعم أن كل ما ذكره سيبويه وغيره من علمائنا القدامى موجود لدى المدرسة التوليدية التحويلية – التحويليين الجدد – فما جاء عند سيبويه وغيره من علمائنا بذور نمَّاها التحويليون الجدد، وغرسوها ورعوها، وأفنوا أعمارهم وأفكارهم من أجل وصولها إلى ما وصلت إليه من العالمية والشهرة والذيوع.

٦. أن التراث اللغوي العربي القديم لدى الباحث العربي يجب أن يكون مصدرًا مهمًا في شتى العلوم والفنون التي ما زالت تعكس ذلك البريق الزاخر من الإبداع والمكانة في تاريخ الحضارة العربية بل في تاريخ الحضارة الأوربية التي اعتمدت اعتمادًا رئيسًا في نهضتها العلمية على الموروث اللغوي العربي الجليل، فأضحى هذا الموروث الزاخر بكل فخر وإعزاز بمثابة الأساس الذي لا يمكن الاستغناء عنه البتة في تناول دراسته والبحث فيه وفي خباياه المعرفية واللغوية والنحوية والأدبية خاصة، والفكرية بصفة عامة عند الغرب وهذا بشهادة المنصفين من علمائهم.

٧. أن الربط بين الفكر اللغوي العربي القديم ونظريات البحث اللغوي الحديث أصبح من المسائل الملحة والقضايا المهمة بعد ظهور علم اللغة الحديث كعلم مستقل عند الغرب وقد لفت إليه أنظار الدارسين غربًا وشرقًا.

٨. أن المنجز العربي قديمًا قد شكّل قسمًا مهمًا من المشاغل التي حفّزت الكثير من الدارسين من غير العرب ليجعلوا منه نواة لبحوثهم الأكاديمية، وألهم الكثير من المراكز البحثية التي عملت على نشره والكشف عما فيه من جوانب إنسانية وقيم كونية، مما يبرز إشعاع الذات العربية وامتدادها في تاريخ المعرفة والآداب العالمية وإن لم يقر معظمهم بذلك.

٩. أن للغة العبرية ومعرفة تشومسكي لها معرفة تامة دورا مهما في تأثره بالنحو العربي؛ فهي الواسطة بين العربية واللغات الأوربية وخاصة الإنكليزية لتأثر تشومسكي بها. فهذا هو الطريق عير المباشر للفكر النحوي العربي وتأثيره في

النظرية اللغوية لدى تشومسكي، أي ترجمة النحو العربي ومبادئه وتطبيقها على العبرية. ومن هنا يبدو أيضا دورها في نقل التراث النحوي العربي إلى علم اللغة المعاصر ولا سيما اللغة الإنجليزية، والسبب في ذلك: أن أغلب أئمة علم اللغة في الغرب هم يهود كـ: جاكبسون، وهال، وتشومسكي وغيرهم.

١٠. أن التراث اللغوي العربي أضحى بكل فخر واعتزاز لا تعصبًا ليس ملكًا للعرب وحدهم، ولكنه ملك حضارة الإنسان المعاصر، من هنا يبدو البحث عن أثر التراث العربي في الدراسات الأجنبية في إبراز الجهود الكبيرة التي حظي بها تراثنا العربي من دراسات الغرب بكامل أطيافه وجنسياته ومعتقداته وتوجهاته، والنظر في مدى التأثر والتأثير الحاصل بين الثقافات المتعددة مع الثقافة العربية، مما يوجد فرصًا جديدة لتلاقح أفكار المشتركين من الباحثين، واستكناه الأنماط والأنساق الممتدة في الزمان والمكان بين الدراسات العربية والدراسات الأجنبية.

فهرس المصادر والمراجع

- الاتجاه التوليدي في النحو العربي الحديث دراسة في فكر خليل أحمد عمايرة من خلال كتاب – في نحو اللغة وتراكيبها – رسالة ماجستير في النحو واللسانيات للطالب/ زكموط بوبكر – كلية الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي/ جامعة قاصدي مرباح ــ ورقلة سنة ٢٠١١، ٢٠١٢ــ
- اتجاهات التحليل اللغوي – د/ بكري محمد الحاج – من إصدارات النادي الأدبي الثقافي بجدة/ السعودية.
- أثر ديكارت في نظرية تشومسكي وتحليله للغة – د/ هدى صلاح رشيد – مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع – العدد (٥٢) مايو ٢٠٢٠م.
- اجتهادات لغوية – د / تمام حسان – عالم الكتب– ط/ الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- إحياء النحو – د/ إبراهيم مصطفى – مؤسسة هنداوي/ القاهرة ٢٠١٤م.
- الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي (نقد العقل التاريخي) – د/ محمد ياسين عريبي – المجلس القومي للثقافة العربية/ الرباط، المغرب – ط/ الأولى ١٩٩١م.
- أسرار البلاغة في علم البيان – عبد القاهر الجرجاني – صححه وعلق على حواشيه السيد محمد رشيد رضا – دار الكتب العلمية/ بيروت – ط/ الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
- الأسرار البلاغية للتقديم والتأخير في سورة البقرة (دراسة تطبيقية) – رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية/ جامعة أم القرى للباحث/ خالد بن محمد بن إبراهيم العثيم ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- أسس تعلم اللغة وتعليمها – هـ. دوجلاس براون – ترجمة د/ عبده الراجحي، ود/ علي علي أحمد شعبان – دار النهضة/ بيروت ١٩٩٤م.
- الأسلوبية اللسانية – أولريش بيوشل – ترجمة/ خالد محمود جمعة – مجلة نوافذ العدد(١٤) سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- الأصول الفلسفية لنظرية تشومسكي اللغوية – أطروحة دكتوراة للطالبة/ خديجة مانع – جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم/ الجزائر – كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة – السنة الجامعية: ٢٠٢٢/٢٠٢٣م.
- أصول تراثية في اللسانيات الحديثة – د/ كريم زكي حسام الدين – دار الرشاد/القاهرة – ط/ الأولى ٢٠٠١م.
- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة – د/ نايف خرما – سلسلة عالم المعرفة ١٩٧٨م.
- إعادة وصف اللغة العربية ألسنيا – د/ تمام حسان – ندوة اللسانيات واللغة العربية تونس ١٩٨٧م.
- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية – د/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) – دار المعارف/ مصر – ط/ الثالثة.
- الاقتراح في أصول النحو – جلال الدين السيوطي – ضبطه وعلق عليه/ عبد الحكيم عطية – راجعه وقدم له/ علاء الدين عطية – دار البيروتي/ دمشق – ط/ الثانية ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦م.

- الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية النظرية الألسنية – د/ ميشال زكريا – المؤسسة الجامعية للدراسات/ بيروت – ط/ الأولى ١٩٨٢م.
- الألسنية العقلانية وانتقاد علم النفس السلوكي – د/ ميشال زكريا – مجلة الفكر العربي المعاصر/ مركز الإنماء القومي – العدد (٢٣) يناير ١٩٨٣م.
- الألسنية علم اللغة الحديث المبادئ والأعلام – د/ ميشال زكريا – المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع ١٩٨٣م.
- انغلاق البنية وانفتاحها في البنيوية والتداولية والبلاغة العربية – د/ أسامة محمد إبراهيم البحيري – ندوة الدراسات البلاغية الواقع والمأمول ١٤٣٢هـ.
- أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث في مجالي مفهوم اللغة والدراسات النحوية – د/ حسام البهنساوي – مكتبة الثقافة الدينية/ القاهرة ١٩٩٤م.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك – ابن هشام الأنصاري – المكتبة العصرية/ بيروت٢٠٠٥م.
- الإيضاح في علل النحو – الزجاجي – تح د/ مازن المبارك – دار النفائس/ بيروت – ط/ الثالثة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- بلاغة العطف في القرآن الكريم دراسة أسلوبية – د/ عفت الشرقاوي – دار النهضة العربية/ بيروت ١٩٨١م.
- البنى النحوية – نعوم تشومسكي – ترجمة د/ يؤيل يوسف يعقوب – مراجعة/ مجيد الماشطة – دار الشؤون الثقافية العامة/ بغداد – ط/ الأولى ١٩٨٧م.
- بنيان اللغة – تشومسكي – ترجمة/ إبراهيم الكلثم – جداول للنشر والترجمة/ بيروت – ط/ الأولى ٢٠١٧م.
- بين النحو العربي واللسانيات الحديثة – د/ عبد الحميد عبد الواحد – مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية/ مركز جيل البحث العلمي/ الجزائر – العدد (٤) ديسمبر ٢٠١٤م.
- تأثير الخليل بن أحمد الفراهيدي والجرجاني في نظرية تشومسكي – د/ جاسم علي جاسم – مجلة التراث العربي بدمشق، العدد (١١٦)، السنة التاسعة والعشرون ٢٠٠٩م.
- تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر – ابن خلدون الإشبيلي – تح/ خليل شحادة – دار الفكر/ بيروت – ط/ الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن – كمال الدين بن الزملكاني – تح د/ أحمد مطلوب، ود/ خديجة الحديثي – مطبعة العاني/ بغداد – ط/ الأولى ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.
- التصريح بمضمون التوضيح في النحو – خالد الأزهري – دار الكتب العلمية/بيروت– ط/ الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- التفكير اللغوي بين القديم والجديد – د/ كمال محمد بشر – دار غريب/ القاهرة ٢٠٠٥م.

- التوصيف اللساني الحديث لتراكيب النحو العربي قراءة في كتاب: (نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية مازن الوعر – د/ طاهر صالح عالوي، ود/ هدى صالح رشيد – مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية – جامعة تكريت/ العراق – المجلد (الثاني) العدد (الخامس) أبريل ٢٠١٧م.
- الخصائص – ابن جني – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط/ الرابعة.
- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني – د/ محمد محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – ط/ السابعة – من دون تاريخ.
- خصائص لغة ابن القيم الجوزية من خلال كتابه مفتاح السعادة – رسالة ماجستير في كلية الآداب والعلوم الإنسانية– قسم الأدب العربي بجمهورية/ الجزائر ٢٠١١م – للباحثة/ نصيرة زيد المال.
- دراسات في البلاغة عند ضياء الدين بن الأثير– د/ عبد الواحد حسن الشيخ – مؤسسة شباب الجامعة/ الإسكندرية ١٩٨٦م.
- دراسات في اللسانيات التطبيقية – د/ مازن الوعر – دار المعرفة الجامعية/ الإسكندرية، مصر ٢٠٠٣م.
- دراسات لسانية تطبيقية – د/ مازن الوعر – دار طلاس/ دمشق ١٩٨٩م.
- دراسات لغوية – د/ محمد علي الخولي – دار الفلاح/ الأردن ١٩٩٨م.
- دروس اللغة العبرية – د/ ربحي كمال – عالم الكتب/ بيروت ١٩٨٢م.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني – تح د/ عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية/بيروت – ط/ الأولى١٤٢٢ه/٢٠٠١، ونسخة أخرى تح/ محمود محمد شاكر – مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة – ط/ الثالثة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
- الرد على النحاة – ابن مضاء القرطبي – تح د/ شوقي ضيف – دار الفكر العربي/ القاهرة – ط/ الأولى ١٣٦٦ه/ ١٩٤٧م.
- سر صناعة الإعراب – ابن جني – دار الكتب العلمية/ بيروت، لبنان – ط/ الأولي ١٤٢١ه/ ٢٠٠٠م.
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب – ابن هشام الأنصاري – تح/ عبد الغني الدقر – الشركة المتحدة/ سوريا.
- شرح قطر الندى وبل الصدى – ابن هشام الأنصاري – تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد – القاهرة – ط/ الحادية عشرة ١٣٨٣ه.
- شرح كتاب سيبويه – أبو سعيد السيرافي – تح/ أحمد حسن مهدلي، وعلي سيد علي – دار الكتب العلمية/ بيروت، لبنان – ط/ الأولى ٢٠٠٨م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء –القلقشندي – تح د/يوسف علي طويل – دار الفكر/ دمشق – ط /الأولى ١٩٨٧م

- الصناعتين – أبو هلال العسكري – تح/ علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبـــراهيم – المكتبة العنصرية/ بيروت ١٤١٩هـــ.
- ضوابط الفكر النحوي – د/ محمد الخطيب – دار البصائر/ القاهرة – د. ط.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – يحيى بن حمزة العلوي – المكتبة العصرية/ بيروت – ط/ الأولى ١٤٢٣هـــ.
- ظاهرة التلازم التركيبي (دراسة في منهجية التفكير النحوي) – د/ جودة مبـــروك محمـــد – مجلة بحوث ودراسات المجلد الخامس عشر. العدد (الثلاثون) ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م
- ظاهرة العدول في البلاغة العربية مقاربة أسلوبية – رسالة ماجستير في كلية الآداب واللغات/ جامعة الجزائر، قسم اللغة العربية وآدابها – للباحـــث/ عبدالحفيظ مراح – الـــسنة الجامعية ١٤٢٦ ــ ١٤٢٧ هـــ / ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦م
- عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني المفتن في العربية ونحوها – د/ البـــدراوي زهـــران – دار العالم العربي ٢٠٠٠م.
- علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي – د/ هادي نهر – دار الأمل/ الأردن – ط/ الأولـــى ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م.
- علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية – د/ فريد عوض حيدر – النهضة المصرية – ط/ ثانيـــة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- علم اللغة العام – فرديناند دي سوسير– ترجمة/ يوئيل يوسف عزير – دار آفـــاق عربيـــة/ بغداد – ط/ الثالثة ١٩٨٥م.
- علم اللغة المعاصر المقدمات والتعليقات – د/ يحيى عبابنة، ود/ آمنة الزعبي – دار الكتـــاب الثقافي – ط/ الأولى ٢٠٠٨م.
- عيون الأخبار – ابن قتيبة الدينوري – دار الكتب العلمية/ بيروت ١٤١٨هـــ.
- فلسفة ديكارت ومنهجه دراسة تحليلية ونقدية – د/ مهدي فضل الله– دار الطليعة/ بيـــروت – ط/ الثالثة ١٩٩٦م.
- فن الترجمة وعلوم العربية – إبراهيم بدوي الجيلاني – الهيئة العربية للكتاب/ الرياض – ط/ الأولى ١٩٩٤م.
- في النحو العربي نقد وتوجيه – د/ مهدي المخزومي – دار الرائد العربـــي/ بيـــروت – ط/ الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- في فلـــسفة اللغـــة – محمـــود فهمـــي زيدان – دار النهـــضة العربية/ بيروت١٩٨٥م.
- في نحو اللغة وتراكيبها – د/ خليل عمايرة – عالم المعرفة/ جدة– ط/ الأولى ١٩٨٤م.
- قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث – د/ مازن الـــوعر – دار طـــلاس/ دمشـــق – ط/ الأولى ١٩٨٨م.
- قضايا ألسنية تطبيقية – د/ ميشال زكريا – دار العلم للملايين/ بيروت، لبنان – ط/ الأولـــى ١٩٩٣م.

- قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية إلى عهد السكاكي – د/ علي محمد حسن العماري – مكتبة وهبة – ط / الأولى.
- قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم – د/ سناء حميد البياتي – دار وائل/ عمان – ط/ الأولى ٢٠٠٣م.
- قواعد تحويلية للغة العربية – د/ محمد علي الخولي – دار الفلاح/ عمان، الأردن ١٩٩٩م. ونسخة أخرى: دار المريخ/ الرياض، المملكة العربية السعودية ١٩٩٤م.
- الكتاب – سيبويه – تح / عبد السلام محمد هارون – دار الجيل/ بيروت – من دون تاريخ.
- اللسانيات النشأة والتطور – أحمد مومن – ديوان المطبوعات الجامعية/ الجزائر – ط/ الثانية ٢٠٠٥م.
- اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية – عبد القادر الفاسي الفهري – دار توبقال/ الدار البيضاء، المغرب – ط/ الثانية ١٩٨٨م.
- اللسانية التوليدية والتحويلية – د/ عادل فاخوري – دار الطليعة/ بيروت، لبنان – ط/ الثانية ١٩٨٨م.
- اللغة الشاعرة – عباس محمود العقاد – مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة/ مصر، من دون تاريخ.
- اللغة العربية معناها ومبناها – د/ تمام حسان – دار الثقافة ١٩٩٤م.
- اللغة بين المعيارية والوصفية – د/ تمام حسان – عالم الكتب/ القاهرة – ط/ الرابعة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- اللغة والمعنى والسياق – جون لاينز – تر/ عباس صادق الوهاب، ومراجعة/ يوئيل عزيز – دار الشؤون الثقافية العامة/ بغداد – ط/ الأولى ١٩٨٧م.
- الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي – علي حرب – المركز الثقافي العربي/ بيروت – ط/ الأولى ١٩٩٨م.
- مباحث في اللسانيات – د/ أحمد حساني – ديوان المطبوعات الجامعية/ الجزائر ١٩٩٩م.
- مباحث في النظرية الألسنية – د/ ميشال زكريا – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر 1985م.
- المتلقي عند عبد القاهر – د / ماجد بن محمد الماجد – جامعة الملك سعود.
- محاسن التأويل – القاسمي – تح/ محمد باسل – دار الكتب العلمية/ بيروت – ط/ الأولى ١٤١٨هـ.
- محاضرات في اللسانيات – خالد خليل هويدي، ونعمة دهش الطائي – دار الكتب والوثائق/ بغداد ٢٠١٤م.
- محاضرات في علم اللغة الحديث – د/ أحمد مختار عمر – عالم الكتّب/ القاهرة ١٩٩٥م.
- المدارس اللسانية المعاصرة – د/ نعمان بوقرة – مكتبة الآداب/ القاهرة ٢٠٠٣م.

- المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة – د/ محمد الصغير بناني – دار الحكمة/ الجزائر– من دون تاريخ.
- المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث – د/ التواني التواني– دار الوعي/ رويبة، الجزائر – ط / الثانية ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.
- مدخل إلى المدارس اللسانية – السعيد شنوقة – المكتبة الأزهرية للتراث/ القاهرة، مصر – ط/ الأولى ٢٠٠٨م.
- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي – د/ رمضان عبد التواب – مكتبة الخانجي/ القاهرة، مصر – ط/ الثانية ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.
- المسافة بين التنظير النحوي والتفكير اللغوي (بحوث في التفكير النحوي والتحليل اللغوي) – د/ خليل عمايرة – دار وائل/ عمان، الأردن – ط/ الأولى ٢٠٠٤م.
- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) – شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي – تح/ إحسان عباس – دار الغرب الإسلامي/ بيروت – ط/ الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- من الأنماط التحويلية في النحو العربي – د/ محمد حماسة عبد اللطيف – مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٩٠م.
- منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث – د/ علي زوين – آفاق/ وزارة الشؤون الثقافية العامة، بغداد – ط/ الأولى ١٩٨٦م.
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري – أبو القاسم الآمدي – تح/ السيد أحمد صقر – دار المعارف – ط/ الرابعة – سلسلة ذخائر العرب (٢٥).
- الموافقات – إبراهيم بن موسى الغرناطي الشهير بالشاطبي – تح/ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان – دار ابن عفان – ط/ الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- النحو التوليدي التحويلي عند تشومسكي التطورات وعناصر التحويل– د/ محمد سالم الرجوبي – المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، المجمد الثاني – العدد الثامن، يونيو ٢٠١٧م.
- النحو التوليدي والتحويلي – شريفة رحمي – كلية اللغات واللسانيات/ بقسم اللغة العربية ولغات الشرق، جامعة مالايا، كوالالمبور/ ماليزيا.
- النحو العربي بين التقليد والمناهج اللسانية الحديثة – د/ بلقاسم دفه – الأثر مجلة الآداب واللغات بجامعة قاصدي مرباح ورقلة/ الجزائر – العدد الخامس مارس ٢٠٠٦م.
- النحو العربي في مواجهة العصر – د/ إبراهيم السامرائي – دار الجيل بيروت – ط/ الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج – د/ عبده الراجحي – دار النهضة العربية/ بيروت ١٩٧٩م.

- نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية – د/ مازن الوعر – دار طلاس/ دمشق – ط/ الأولى ١٩٨٧م.
- نشأة الدرس اللساني العربي الحديث (دراسة في النشاط اللساني العربي) – د/ فاطمة الهاشمي بكوش – دار إيتراك/ مصر – ط/ الأولى ٢٠٠٤م.
- النظريات النحوية والدلالية في اللسانيات التحويلية والتوليدية محاولة لسبرها وتطبيقها على النحو العربي – د/ مازن الوعر – مجلة اللسانيات العدد (٢) مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية، الجزائر ١٩٨٢م.
- النظرية التحويلية التوليدية في الفكر اللساني العربي الحديث – بدرة عمار علي فرخي – رسالة ماجستير كلية الدراسات العليا/ الجامعة الأردنية 24 كانون الأول ٢٠٠٣م.
- النظرية التحويلية التوليدية وأثرها في اللغة العربية – معتز إبراهيم عبد الرازق عواد – مجلة جسور المعرفة، المجلد (٦) العدد (١) مارس ٢٠٢٠م.
- نظرية التقدير عند النحاة العرب والمسلمين وأثرها في نحاة الغرب المعاصرين تشومسكي مجدد النحو العربي – د/ جاسم علي جاسم، ود/ زيدان علي جاسم – مجلة العلوم العربية والإنسانية/ جامعة القصيم المجلد (٣)، العدد (١) المحرم ١٤٣١ه يناير ٢٠١٠م.
- نظرية التوليد والتحويل بين القدرة الكامنة والآداء اللغوي – عبد الله عنبر – مجلة دراسات (العلوم الإنسانية والاجتماعية) – المجلّد (٣٩)، العدد (٢) ٢٠٠٩م
- النظرية التوليدية ومناهج البحث عند تشومسكي– د/ منذر عياشي – مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد (٤٠) تموز–آب ١٩٨٦م، مركز الإنماء القومي/ لبنان.
- نظرية العامل في النحو العربي – د/مصطفى بن حمزة – مطابع النجاح/ الدار البيضاء– ط/ الأولى ١٤٢٥ه/ ٢٠٠٤م.
- نظرية النحو الثاني في مفهوم عبد القاهر الجرجاني – أ/ عمار ربيح – الأثر مجلة الآداب واللغات – جامعة ورقلة/ الجزائر العدد الرابع ٢٠٠٥م.
- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث – د/ نهاد الموسى – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ط/ أولى ١٤٠٠ه/ ١٩٨٠م.
- نظرية تشومسكي التحويلية التوليدية الأسس والمفاهيم – د/ مختار درقاوي – الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية. ب/ قسم الآداب والفلسفة – العدد (١٣) سنة ٢٠١٥م.
- نظرية تشومسكي اللغوية – جون ليونز – ترجمة د/ حلمي خليل – دار المعرفة الجامعية/ الإسكندرية، مصر ١٩٩٥م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	٩٤٢
٢-	Abstract	٩٤٣
٣-	المقدمة	٩٤٤
٤-	التمهيد: التعريف بالنظرية وأهميتها	٩٤٧
٥-	المبحث الأول: نشأة النظرية التوليديّة التحويليّة في الدراسات الغربية الحديثة	٩٥٤
٦-	المبحث الثاني: النظرية التوليدية التحويلية في الدراسات العربية القديمة	٩٧٧
٧-	الخاتمة	١٠٣١
٨-	فهرس المصادر والمراجع	١٠٣٤
٩-	فهرس الموضوعات .	١٠٤١